



الإبداع العربي

قصص قصيرة

شيخ .. في شرفة العثم

عبد العزيز الشاوي



الطبعة الأولى: ٢٠٠٨



ترفع في شرفقة الصمت

الاخراج الفنى : سهير معطى

ترغ في شريعة الصمت

٥ قصائد قصيرة

عبد العزيز الشناوي



دار النشر للكتاب العربي

١٩٨٥

إهداء

إلى أحمد واسماء وزينب ..

أطفالي

عبد العزيز الشناوي

شرح فى شرنقة الصمت

« يا بيض اليمام يا عتب »

أفلتت من بين شفتى تنهيدة ملتفة . أشياء حارقة تملأ أعماقي ؟
تتزاخم فى صدرى ؟ تنحشر فى حلقي ؟ حزن .. سخط .. ألم ؟
اشعلت كلمات طبيب الوحدة المجمع نار الخوف فى قلبى ؟ .. :

- ابنك فى حاجة الى عملية جراحية .. عاجلة .

- ألا يمكن الانتظار ؟ ..

- هناك أشياء لا تقبل التأجيل .

جذبت قفص الخيار تحت المظلة . لو انتظر التمسورجى
لحظة حتى أكمل حديثى مع الدكتور ؟ لكنه دفعنى نحو الباب .
استدعى غبرى من الطابورين الطويلين .

قلبت احدى ثمار الخيار فى يدى . لماذا تبدو ذابلة هكذا ؟
ترك عبد الغنى الأقفاص فى الشمس طويلا .. ؟ كلت حيلة الحلاق

مع ابني . زاد شحوب وجهه . هزال جسمه . نصحتني أن أصحبه
الى الطبيب . . . قلت لنفسى ألا يريد تقودا ليكشف عليه ؟ لابد أنه
سيكتب روصتة . . . جيبى خال . الشفاء من عند الله . كان أبى
يرفض الذهاب الى المستشفى اذا ألم به المرض :

— الحكيم ربنا . .

« يا بيض اليمام يا عنب »

مرت أمامى امرأة ترتدى ثوبا بلون قوس قزح . عندما علت
من الوحدة المجمة أجر قدمي . كنت فى حاجة الى كلمة رقيقة .
بسمة حنون . تريحنى . تخفف من الآلام . الأحزان . الحيرة التى
تضغط على صدرى . لكن زوجتى جلست بجوارى . وضعت يدها
على خدها لتظهر ثوبها عند الصدر والكتف :

— هات كيلتين ذرة . أربع كيلات قمح لأجهز الطحين . ماذا
تنتظر . . اقترب العيد . .

— كل عام وانت طيبة . . حافظة تقودى خاوية .

هبت واقفة . وضعت يدها فى خاضرتها . هزت رأسها :

— نعم . . نعم . . أتدعى ذلك لكىلا تشتري لى ثوبا جديدا ؟
قذفت فى وجهها حافظة النقود الخالية .

تعلقت عيناي بالسحب الرمادية المهلهلة . عندما سمع ابني
الأكبر زعيق أمه أقبل نحونا . جرت يده على جلبابه المزق :

— غاب لونه « لحسه » لسان الشمس . كيف أرتديه فى العيد ؟
التف حولى بقية أولادى . راح كل واحد يطلب جلبابا .

حط الذباب على قفص البلع . أمسكت المنشة . عادت المرأة
صاحبة الثوب الملون الجديد . رن صوت زوجتى فى أذنى :

— ألا تجده حيلة لهذه الدار ؟ الى متى سنتركها خرابا مباحا
للريح والمطر ؟ العيد قادم .. بأى وجه سنقابل أهل القرية ؟

شيء ثقيل كالحزن يعيش فى أعماقي . أسندت ظهري الى
الحجر الكبير الراقد بجانبى كان الهواء يصفر فى الحجرة التى ينام
فيها ابنى . أكل الناموس وجهه . صار جسده كالفرن . ظننت أن
الامر مجرد لفحة برد .. لكن ...

ارتفع صوت رشوان . ماذا حدث ؟ يساوم المرأة صاحبة
الثوب الذى بلون قوس قزح ؟

امس تشاجرت مع صاحب الدار :

— مرت خمسة أشهر ولم تدفع ايجارا . تراكت عليك
النقود .

— تفرج .. الشهر القادم .

— خمسون قرشا ايجار كل شهر . وتقول لى تفرج ؟ ملمون
يوم تأجير الدار لك .

سكنت المنشأة فى يدى . ليلة أن أجر تالدار : كادت
زوجتى ترقص :

— الحمد لله . هدية من السماء . نصف جنيه ايجار ..؟
« يا بلاش » .

رغم ضالة الخمسين قرشا .. تراكم عليك ايجار خمسة
أشهر .. !

« يا بيض اليمام يا عنب ،

زحفت أشعة الشمس نحو قفص الخيار . منذ قليل رفض
عبد الغنى أن يعطينى ثلاثة أقباس خيار :

— لن تأخذ أكثر من قفص • لولا العيش والملح لما أعطيتك
« زر » خيار • أين الجنيهاات الستة التي طرفك ؟

— تتعدل •

— متى ؟ سمعت كلمة تتعدل مليون مرة •

لماذا منك السوق هكذا ؟ حتى الذباب كف عن الطنين ؟
حينما أحاط بى أولادى وزوجتى • • وضعت يدى على أذنى • نهضت
واقفا • خرجت من الدار ساخطا •

تلفت حولى • وقع بصرى على أبى العينين معلقا بندقيته فى
كتفه • يتأبط عصاه وسبته الكبير :

— مرحبا يا عم أبو العينين •

— تفضل يا شيخ الخفراء •

أحس بالدم يشتعل فى عروقى • لابد أن كل واحد قد جهز
له المعلوم • بعد دقائق سيملأ السبت « بلوشى » • لماذا لا يستنكر
البائعون وقاحة أبى العينين ؟ كل يوم يطب • • • يلهف مكسبنا ؟
الحكاية تسير « بالتيلة » • رزق يوم بيوم • •

انطلقت من صدرى تنهيدة كالفحيح • طفا وجه الشيخ برعى :

— أيرضيك ما يفعله أبو العينين • • خفير حضرة الضابط
الخصوصى • • يا مولانا ؟ لماذا لا ينزل الله علينا لعنة كما أرسلها على
عاد وثمود ؟

— اصبر على الظلم فلن يدوم •

ارتفع صوت الخليل :

— ماهذا ياولد • • ياغازى ؟ ألم تر ؟ ثمرة طماطم « شرك » • •

— لقد وضعت فى السبت « وش » القفص يا شيخ الخفراء •
وعلى العموم الأتفاص أمامك • • خذ ما تريد •

« الى استحقوا ماتوا » يقول لرجل اكبر منه سنا .. يا ولد ؟
بكل بجاحة يعترض . يقول : ثمرة « شرك » لو اخطأ مرة ومد يده
فى جيبه المنتفخ بالنقود ودفع قرشاً .. ثمن رمزى .. !

« يا ببيض اليمام يا عنب »

اقبل بوجهه المتبعج .. زر بطاطا مشوية :

— ولد يا صلاح .. هات كيلو خيار وثلاثة كيلو بلح و ..
برزت من عينيه صورة ابنى المريض . جدران مسكنى المهيم .
جلباب زوجتى الممزق . وجه عبد الفنى العابس :

— هل معك نقود ؟

— ماذا تقول ؟

— لقد سمعت سؤالى .

— اريد أن اسمع .

— اذا كان معك نقود .. سوف أبيع لك .

دس سبابته فى أذنه . حركها . ألم تخرق كلمائى أذنيه ؟
تحاولان أن تتدفق كلامى ؟ لماذا يحملق فى وجهى بعينين مرييتين ؟ ..
قرد شرس .. ! :

— هات يا ولد .. هل ستمزح معى ؟

— اننى لا أمزح .

— لا . لا . انك تمزح . هيا . هيا . ليس لدى وقت .

— لم اكن جادا مثل الآن .

— أتصرف مع من .. ؟

— اعرف اننى اتحدث مع وكيل مفوض حضرة الضابط .

تجمع أهل القرية .. غصون شيطانية .. أنبتتها الأرض
فى ملح البصر ؟ :

— ماذا هناك .. يا شيخ الخفراء ؟

— لا .. لا .. ليس هناك شيء .. المعلم صلاح يمزح معي .

لماذا يتكلف الابتسام .. ؟ يغلف كلامه بكل هذه النعومة ؟
أعرفه جيدا . لسانه كالحرير . لكنه يبتلع الشوك .. ! :

— قلت لك لن أعطيك شيئا الا اذا دفعت ثمنه مقدما .

حطت العيون المذعورة على زر البطاطا المنبجع . كاد الدم ينط
من وجه أبى العينين . ارتمش شاربه الكثيف . وقفت شعراته
البيضاء كالسكاكين . انشقت شفثاه . لماذا زهما ؟ عدل عن الكلام ؟
لم يجد الكلمة التى يريد قولها ؟ .
هز رأسه . ابتلع ريقه .. رفع عصاه . تلقيتها بيدي .
نحيثها .. بغلظة .

« يا بيض اليمام يا عنب »

أظلم وجه الخفير . بدأ اضطرابه فى تقلصات شفثيه .
ابتساماته المتتابة . فى السؤال المتحجر فى عينيه . أحس بالرج
والغضب ؟ لم يعتد أن يتمرد عليه بائع فى السوق ؟ خشى أن
يتكرر هذا مع بقية البائعين ؟ يصبح التمرد عادة .. ! ليت هذا
يحدث .. !

تكور الصمت . التوتر . الخوف فوق السوق . تقابلت
العيون . ارتجفت الأجفان التى بلا رموش . غطت الوجوه الشاحبة
ظلال الخيرة .

شد أبو العينين قامته هههم بكلمات غير مفهومة . لماذا سقطت
الرموس على الصدور ؟ كيف يرفعونها وقد نشأوا على الخوف
المكبوت من صفعات . لدغات عصا الخفير ؟ الكل يعمل له ألف

حسناً! الى متى نشرب المر على يديه ؟ ألم يفكر أحدنا فى النظر الى نفسه ليرى من هو ؟ لماذا يحدث لنا كل ذلك ؟ ألا يكفي أن أبا العينين كل يوم يمر علينا «يشفط» ما تيسر ؟ لم يبق الا أن ينتزع اللقمة التى سنضعها فى أفواهنا ؟ ألم ير ؟ كيف أصبحت حياتنا أسوأ من حياة الكلاب ؟ الى متى نلوك الخوف ؟ نمضغ غضبنا ١٠٠ !

تحتاج السعيد عبد الجليل :

- هل أصابك الجنون ٠٠ يا معلم صلاح ؟

- لا ٠٠ بل أنتم المجانين ٠

- لماذا ؟

- لأنكم فقدتم الشجاعة ٠ لماذا لا تقولون الحقيقة ؟

هتف الخفير :

- ستدفع ثمن طول لسانك ٠٠ يا صلاح ٠

- ليس قبل أن تدفع ثمن كل « زر » خيار ٠ كل بلعة ٠

لماذا ينظر الى من ركن عينيهِ ؟ يندرنى ؟ ماذا سيفعل ؟ أعرف أنه ثقيل اليد ٠ طويل الذراع ٠٠ لكن كيف تجلدت عيناك لنظراته المتوهجة ؟ من أين لك كل هذا التحدى والاصرار ؟ منذ متى واتتك هذه الشجاعة ؟ لو أثمرت محاولتك ٠٠ !

زغق رشوان :

- حَقَّكَ عَلَى يَا شَيْخَ الْخَفَاءِ ٠٠ تعال معى ٠ سأعطيك

كل ما تريد ٠ الحيار والبلع و ٠٠ تحت أمرك ٠

لماذا نفخ أبو العينين صدره ؟ رفع أذنه الى السماء ؟ شعر بالزهو وهو يسمع رشوان يعتذر له ؟ أراد أن يستعيد هيئته ٠٠ القديمة ٠٠ !

– أشكرك .. يا رشوان .. وسوف يعلم صلاح ابن يائع
الليمون أن ما حدث اليوم .. لن يمر على خير .

تفجرت نار الغضب في صدرى :

– كان أبى فقيرا .. لكنه أشرف من أناس كثيرين .
لماذا اخضر وجهه واصفر ؟ أدرك ماذا أقصد بالناس الكثيرين ؟

« يا بيض اليمام يا عنب »

لمحت الشيخ برعى يسرع نحو المسجد :

– « وما كنا مهلكى القرى الا وأهلها ظالمون » .

لوى الخفير ظهره :

– على العموم .. سأخبر حضرة الضابط بما حدث اليوم .

ابتسمت .. هزئت المنشة :

– سلامات .. يا حضرة الضابط .

شبهق غازى . قبض على ذراع أبى العينين :

: – أرجوك .. انتظر يا شيخ الخفراء .

نظر نحوى .. أضاف :

– لقد كبرت الحكاية .. كانت بين أيدينا أطرافها .

وكزنى زاهر بكوعه . من بين أسنانه :

– اعتذر لشيخ الخفراء .. قبل رأسه .

أنا أقبل رأسه ؟ سكوتنا . مهادنته جعلت منه رجلا مرهوب
الجانب كأنّ معلما . أصبح له بيت عال مبني بالسلاح على سطحه
أيريال .. من أين كل ذلك ؟ اليس من الشفط .. اللهف ؟

الأستاذ علام يقول لى :

- الدار التى تسكنها .. الرطوبة والملح يرسمان على بقايا
جدرانها الطينية خرائط لقارات العالم .

لوح بديره بيده :

- يعنى عامل « فلحوس » .. كلنا نقدم لشيخ الخفراء
ما يريد بدون وجع دماغ .

لو كنت فى السوق بمفردى .. ؟ لكن زهران . السعيد .
رشوان . حموده . بديره . غازى . و .. نحن كثيرون . لماذا نسكت ؟
الى متى يكتم الحوف أمواهنا .. !

أمتست يد السعيد نحو قفص الخيسار . قبضت عليها ..
أزحتها بعنف :

- ماذا تفعل ؟ يمين طلاق .. لن اعطى أبا العينين شيئا ..
حتى ولو دفع ثمنه مقدما .

- طيب .. طيب ستعرف من هو أبو العينين .. يا صلاح

تساقطت الهمهات من الأفواه :

- رحت فى شربة ماء .

قولكم هذا . سكوت الآخرين معناه الموافقة على ما يفعله الحقير .
شجعه على الاستمرار فى بلطجيته . لو تصدى له أحدا ؟ . رفض
أن يقدم له شيئا « بلوشى » ؟ صرخ فى وجهه مطالبا بثمن
ما يلهف .. ؟ لما حدث ما حدث . عبد الغنى يقدم لنا الطماطم
والخيار والبلح و .. بدون نقود ؟ نأتى بها من البحر .. ؟

ضغط بديره على ذراعى :

- ربنا يهديك .. اخز الشيطان .

جذبت ذراعى من قبضته بقوة :

- اسمع كلامى .. سأعذر لأبى العينيز بدلا منك .
- هوت يدى على صدغ پدره .. قفز حموده .. حال بينى وبينه .
- لماذا منعنى عنه ؟ كانت فرصة « لأفش » غليل .. ! :
- هل هذا جزائى ؟
- لا دخل لك فى الموضوع .
- أنت حر . ان شاء الله لن يعرف الذباب الأزرق مكانك ..
- بعد ذلك .

ارتطم بصرى بباب الاستاذ علام :

- أشجار الخوف لا تثمر الا الذل .
- « يا بيض اليمام يا عنب »

هس غاوى فى الأذى :

- دع المركب تسير . لقمة العيش تقتضى أن يتنازل الانسان
- عن جانب من كرامته أحيانا .. ليعيش .
- هل نعمل عند أبى العينين ؟ سيعطينا أجرا آخر النهار ؟
- يا أخى .. لماذا لا نتجنب المشاكل . كلما فتحنا بابا ..
- تقفله ؟

انعنى الخفير .. حمل السبت :

- وشنب أبى العينين .. لن أنساها لك .. يا صلاح
- يا ابن بائع الليمون .
- تراكمت الأيدى على ذراع السبت . انطلقت كلمات الرجاء .
- تطلب من الخفير الانتظار . تتوسل اليه أن ينسى ما حدث ؟ تسمع
- عيبتى فى ذقونهم ؟
- التقط أبو العينين ثمرة طماطم من جوف السبت . وضعها
- على عينيه :

ـ وجبة هذه النعمة لن أنسى هذا لصالح • ولن أتنازل عن
حقى •

ـ حقك ؟ متى دفعت الثمن •• !

رفع غازى حاجبيه • هز رأسه مشققا :

ـ مسكين •• صارت حياة المعلم صلاح معلقة فى خيط
رفيع •

مط رشوان شفقيه :

ـ لا يستطيع أحد أن يخمن ماذا سيحدث له ؟

لوح حموده يديه • زعق :

ـ ماذا سيحدث ؟ ستطبق السماء على الأرض ؟ ستقوم
القيامة •• !

تخلص وجه الشمس من جوف سحابة ترابية • سقط ظل
أبى العينين أمامى •• فأر صغير •

رفع زاهر ذراعيه بحذاء كتفيه :

ـ لقد نصحتك • لم تسمع الى قولى • لن يقف أحد بجانبك •

ـ أعرف أننى سأكون وحيدا •

لماذا يحدق حموده فى وجهى بنظرة عميقة هكذا ؟ ما سر
الابتسامة التى تتسع على شفقيه ؟ يستنكر قولى ؟

تقدم • التفت نحو غازى • بدرة • أبى العينين • رشوان •
زاهر • ملأت الابتسامة وجه حموده •• منه يديه نحوى •• شد على
يدى باعزاز •

ماء التربة يجرى هادئا • أفسحت الحطو • أهل القرية قادمون
مع مواشيهم من الحقول • ماذا سيقول زوجى عندما يعود ولا يجدنى
قد أعددت طعام العشاء ؟ أؤخبره أننى كنت أنقى القمح وأكسر
الدريس و • • وكنت على وشك الغرق اليوم فى التربة ؟

جذبت سقطة الباب • فتح على الفور • كشفت غطاء الزير
الخشبي • أمالت رأسها بالبلاص • صعدت فوق السطح • ألقت
بحزمتين من الحطب وقرصين « جلة » • جلست أمام الكانون •
قذفت ببعض أعواد الحطب فى جوفه • تناولت السنة اللهب •
وقع بصرها على الحمامة البيضاء • ما زال صدرها ملوثا بالدم ؟

فى منتصف الليل ترمى الى اذنى صوت غريب فى الصالة •
سحب جسدى من بين الأجساد المترصة على « البرش » رأيت
ثعبانا بلون التراب يفج فى وجه الحمامة البيضاء • راحت تضربه
بجناحيها بعنف • تفرس متقارها فى جلده المطاطى • كانت تدافع
فى استماته عن فرخيها الصغيرين • هرعت الى زوجى • التقط عصا

طويلة • أمسك ابني الأصغر بالفرقة • ولى الثعبان هاربا • ملأ
الاشفاق عيوننا عندما وجدنا جروحا عميقة فى صدر الحمامة • كسى
الاعجاب وجوهنا حينما اكتشفنا أن فرخيهما لم يصبهما أذى •

عادت تدس فى ثفر الكانون أعواد الحطب • ترى أين اختفى
الثعبان ؟ غادر الدار ؟ لو سقط فى أيدينا بالأمس ؟ •

صحن الدار واسع لا يحده عن الجرن إلا أشجار التوت •
منذ شهرين تسلك ثعبان الى حظيرة الدجاج • كان لونه ترابيا •
الا يكون هو نفس الثعبان ؟ أنه هو • أنا أعرفه • عيناه اللامعتان
كعيون الصراصير • وذيله معقوف • متقار حداة عجوز • لدغ
الدجاجة الراقدة على بيضها • ماتت • اختنقت الكتاكيت فى جوف
البيض •

فار الحساء • تلوى الغيظ فى صدرها • مدت يدها الى القلة
الراقدة بجوار الكانون • أين غطاؤها ؟ كيف نسيتهما مكشوفة ؟
وسدتها فخذها • بسطت يدها اليسرى لتستقبل حبات الملح •

سقطت من بين شفتيهما المرتعشتين صرخة حادة عندما رأت
ثعبانا بلون التراب يتدلى من فوهة القلة • أجفلت يدها اليمنى
لتخلص يدها اليسرى من أسر الثعبان • انتفضت • احتواها خوف
مجنون عندما التصقت اليدهان • أصبح الثعبان قيداً ؟

لماذا لا تستنجد بصوتها « الحيانى » ؟ ما هذا الذى يصك
أذنى ؟ صراخ ! من ؟ صراخى أنا ؟ أستطيع ذلك ؟ يجب ألا تبتفض
أطرافى أو يرتجف قلبى والا • • ؟

يوما ما قال أبى :

— اذا أبدت خوفا للثعبان لدغك •
هل أبدى أولادى الثلاثة خوفا ؟ لدغهم الثعبان من وراء
ظهورهم ؟ • •

جاءها صوت بومة • شعرت بوخز في معصمها • ما هذا الذي يرسل عبر لحمها رعشة ؟

قرأت الفاتحة مرة والصمدية مرات •• الثعبان يشدد من قيده حول يديها • صوتها لا يفادر حلقها • جثمت على صدرها صخرة ضخمة ؟ اختنقت ؟ لو أحس الثعبان بالخوف يسرى تحت جلدها لن يتردد عن لدغها •

يلدغني ؟ تتورم يدي ؟ تصبح في زرقة النيلة ؟ ارتعش ؟ أموت !

انتفض قلبها بين ضلوعها •• عصفور مكسور الجناح • قفزت الى ذهنها صورة ابنها الأوسط منذ ست سنوات جاء به أهل القرية محمولا على حمار • كان مدلى الرأس والذراعين •• شجرة أطاح بها اعصار •• تفرست وجهه الذي بلون الكبد •• نفس الزرقة التي كانت تجتاح وجهي أخويه :

— لدغه الثعبان •• أيضا ؟

هوت الرؤوس على الصدور •• أعلام منكسة في يوم حزين •• تمتت الشفاة بالايحاب •

سقط بصرها على يديها المقيدتين • الى متى ستظل واقفة ، مصلوبة اليدين كالتمثال ؟ كانت تنقصها هذه المصيبة ؟ ألم تشبع وارتوت من حنظل الأيام ؟

صر الباب صوت زوجها يتخرج عبر الصالة :

— أين أنت يا •• ؟

تهشمت بقية كلماته العاتبة بين أسنانه • وقف مشدوها • لا يصدق عينيه ؟ :

— لا تحركي يدك •

كلماته خافتة الا أنها صلبة • عميقة الغور • تدفقت من

اعماقه ؟ سكبت شيئا من الطمانينة فى صدرها الواجب !
تلقت الزوج حوله • شعرت بشيء كالموسى يحز يديها •
الثعبان يحذرني من اتخاذ أية خطوة ضده ؟ لماذا لا أصرخ ؟ الصراخ
قله يخيفه • لو أبديت خوفا ربما لدغنى • اننى فى حاجة الى مجهود
عنيف لاختفاء رعبى •

فتح الثعبان فمه • جوفه أخضر • خلف أنيابه الخضراء كيس
السم ! تآرجحت أمام عينيها حبال الطحالب التى تداعبها الأمواج
عند الموردة • كدت أغرق اليوم عندما وطأت قدمى إحدى جدائل
الطحالب لولا أن تشبثت بحجر كبير •

تحسس فم الثعبان ظهر يدها • سرى الذعر فى نخاع عظامها •
ماذا يبنى ؟ يتخير المكان الذى • • ؟ يبحث عن عرق يغرس فيه
أنسابه ؟

الخوف يغلف كل شيء • يتحرك مع كل نسمة • يملأ صدرها •
تطلعت بعينيها المرتجفتين نحو الأفق • صار يلون الدم ؟ يسكب
فيه قرص الشمس جراحه ؟

تسارعت ضربات قلبها • • هون فى يد متعجلة • الأشياء
تهتز أمام بصرها • تذوب • تتلاشى • • أصابها دوار ؟

أقبل زوجها مع أهل القرية • ملأوا صحن الدار • زادت
العيون اتساعا • صارت كلماتهم خطوطا حزينة باهتة ! زحفت
عينها على أذرع أشجار التوت التى عراها الخريف من رداثها •

امسك الحفير طرف جلبابه الأزرق • هوى عليها بخيزرائته • •
زعى :

- وسمع ياجدع انت وهو • باخلق هذه ليست سينا •
انها مصيبة •

كل عضلة فى وجهها تتوسل الى أهل القرية أن يفعلوا شيئا
من أجلها • عينا زوجها تهسان :

• أنا مملك • بجوارك •

• ما فائدة وجودك بجانبى والثعبان يقيد يدي ؟ •

فى مقلتيها ظلال مقاومة لرغبة متشنجة فى البكاء • استعذب
الثعبان أن يرانى أتعذب ؟ أكاد أموت رعبا • راح فقيه المسجده
يغمرها بكلمات التشجيع ويوصيها بالصبر •

أصبر ؟ أليس من المضحك أن نرى انسانا مشرفا على الفرق
ونتوجع له ونحن وقوف على الشاطئ بلا حراك دون أن نلقى اليه
حبلا أو طوقا للنجاة !

تلقت الثعبان حوله • لماذا تبدو نظراته قلقة ؟ دب الخوف فى
اوصاله عندما رأى أهل القرية يحيطون به ؟ أحس بالندم لأنه لم
يلدغنى قبل مجيئهم ؟

ذات يوم قالت أمى :

— الثعبان جبان • عندما يحس بالخطر يحاصره يولى هاربا •
يهرب وبين أنيابه الفريسة ؟ كيف يترك يدي اللتين يقيدهما
بجسده الأملس الحديدى ؟

يدرك أن أهل القرية لن ينالوا منه مآربا ! الخبيث نسج خطته
بمهارة ؟

تنافرت المشورات :

— لماذا لا نرسل الى «ج» ؟

من صاحب هذا الاقتراح ؟ لا أعرف من أين جاء صوته ؟ كيف
صك أذنى من بين الضجيج ؟

تسلقت العيون الرؤوس محسولة أن تتعرف على المتحدث •
« ج » « مخاوى » يسخر الجن • ينقل الحائط عن الحائط • يجعل
قالبى الطوب يتشاجران •

انفرج الجبل البشرى • تقدم « ج » بوجه الذى يشبه الجزرة •
واجهته بنظرات صامته حبل بالاستغاث • ابتسم مطمئنا • هرش
قفصاه :

— أريد كيلتين أرز وقفص مانجو •

— المهم أن تخلصنا من هذا الثعبان •

تعلقت الأبصار بشفتى « ج » رفع يديه • تطلع الى السماء •
الغروب بلون الثعبان ، بسط « ج » ورقة جريدة أمام عينيه
الزرقاوين •

منذ أعوام وجدت ورقة صحيفة بين كتب ابنى • وقع بصرى
على صورة فتاة جميلة ترتدى ملابس غريبة رائعة • قدمتها اليه :
— هذه حثشبسوت • ملكة من ملوك مصر القديمة • انها
تشبهك تماما •

كادت تسقط من فمها صرخة • لدغها الثعبان ؟ عضلاته
الحديدية المتشنجة ستمزق معصمها ؟
أغضبته همهمات « ج » ؟ لو استمر الأمر على هذا الحال
سأصاب بانفيار عصبى :

— يبدو أن الثعبان جائع • احضروا له بيضا • •
بيض ؟ طازج ؟ مسلوق ؟ مشوى ؟

قدم الزوج الى « ج » ثلاث بيضات طازجة فوق مطرحة •
هشم البيض • سال السائل الأصفر على المطرحة • مدحا نحو
الثعبان • اشرب عنقه • لماذا يقلب عينيه هكذا ؟ يستطلع الأمر ؟
مد لسانه الرفيع • تذوقه • رشف احدى البيضات •

نبت الأمل فى صدرها • سرت نسائم الارتياح على الوجوه
الشاحبة • ابتسم « ج » فرك يديه • اندفعت نافورة مصحوبة نهجيج

من فم الثعبان • غطى السائل الأصفر وجه « ج » • تراجع فى رعب
أخرس • اتقدت عيناه بالغضب والخجل • تدفقت الشهقات من
أفواه أهل القرية • تعلق بأهدابها حبات من الدمع • كل شيء
حولها يقول :

« لا فائدة » •

هتف فقيه المسجد :

— كيف يستجيب الله لدجال خرب الدمة يشرب الخمر ؟ من
يديرنا ؟ • ربما اتفق هذا الضلالى مع الثعبان على ألا يترك يديها ؟
ابتلع « ج » اهانة فقيه المسجد • أسرع نحو الزير ليفسل
وجهه •

عاد الثعبان يتشمم ظهر يدها • أنفاسه تحرق دماءها • لماذا
كان يهادنك طوال ذلك الوقت ؟ كان يدرك أنك لن تبقى طويلا ؟
يتلذذ بخوفى وعذابى ؟ يرضى شيطاننا خبيثا يرقد فى أعماقه ؟ يريد
أن أنهار وأصبح قريسة مستسلمة ثم ينال ما يريد ؟

الأسبوع الماضى سقط فأر فى المصيدة • راح ابنى الأصفر
يلهو به • كان يتشقى وهو يراه بين جنبات سجنه فى ضيق وحيرة •
يوخزه بمسمار طويل مدبب • هتف والده :

— اقتله •

— أريد أن ألهو به قبل أن ••

— قد يغافلك ويغلت من المصيدة •

— انها محكمة • أسلاكها قوية •

تساقطت غيشة المساء • تراقصت ذبالات المصابيح البترولية •
الى متى سألوك خوفى فى صميت ؟ أصبح جسدى غير قادر على حمل •
أى ذنب ارتكبته حتى تحكم على يا الهى بهذا ؟ أستغفرك سبحانه •
صاح أحد رجال القرية :

– ألم تهتدوا الى وسيلة ؟

السؤال يتردد فى الحاح . الكلمات تدور بين جدران رأسها .
تارجحت المراثيات أمام عينيها . حط الصمت .

جرح السكون صوت غليظ . . صوت ذكر الضفدع . تقلم
عرضحالجي القرية :

– اننا نركض فوق جبل الاستحيل .

– ماذا تمنى ؟

– لماذا نسير فى طريق مجذب ؟

– أخبرنا ما العمل ؟

– ما دام لا فائدة . يبقى ضربوا الأعور على عينه . . .

– ماذا تقصد ؟

– نقطع يديها وننهال على الشعبان بالفنوس والعصى .

تقطعون أيدي ؟ ما هذا الاقتراح المزعج ؟ أعيش بلا يدين ؟

لم تستطع اخفاء الشحوب الذى اجتاح وجهها . طاف بصرها
اللاهث على عيون أهل القرية ترقب نظراتهم المشتتة .

ارتفع صوت قبائى القرية مستنكرا :

– لقد فاق جهلك من حرق اللعاف من أجل قتل برغوث .

– أن تدعى الجهل خير من أن تلعى العلم .

– لا داعى للثرثرة والأفكار التى لا ترتفع عن موطئ قدميك .

أتظن أن الحكاية عريضة أو شكوى ؟

– لماذا تتحدث من وراء ظهور الرجال . تقسمم وأخبرنا

يا « أبو العريف » كيف تخلصنا من هذه الورطة ؟

تدخل فقيه المسجد • رفع يديه :

— يا جماعة صلوا على النبي • فكروا • عسى الله أن يهدينا
إلى حل سديده •

انسكب الصمت من جديده • ملأ صحن الدار • حفر في النفس
ألف دوامة بلا قرار • انشق طريق في منتصف الدائرة • تقدمت
« الماشطة » :

— الثعابين تحب الطرب والموسيقى • لماذا لا نرسل إلى الطبال
يحضر دفه ومزماره ؟

دف ومزمار ؟ أظن أننا في عرس ؟

استيقظت التعليقات • ماتت عند أذنيها • ما هذا الصخب
الذي يهدر في جمجمتها ؟ يتدفق من أعماقها ! حقن الثعبان سمومه
في دماغها ؟ طغت أعراض الحمى ؟ لا • لا • ما زال الثعبان « يكلش »
يديها • كل ما تخشاه أن يتسلل من كم جلبابها إلى صدرها •
لو فعل ٠٠

خنقت رعشة أوشكت أن تحتوى جسدها • سينهش ثديي
الأيمن أم الأيسر ؟ يريد أن يبت سمومه في النبع الرقاق الذي
يروى أبنائي ؟ ألا يكفي أنه قتل ثلاثة منهم ؟

لماذا لم يأت الطبال ؟ الوقت يمر بطيئا ثقيلًا • ترس ضخم
يفتت أعصابها •

أقبل الطبال • في يده دف كبير • على أطاره دوائر حمراء
بلون الدم • بجانبه ابنه يمسك مزمارا « مدندش » بسسلك
نحاسي •

نقرت أصابع الطبال على الدف نقرات بطيئة منتظمة • امتزج
بها صوت المزمار الشجي •

• تطاول عنق الثعبان • هز رأسه • أصابه الطرب ؟

انتعش الأمل في العيون النخابية • زغردت « الماشطة » •
سينجح اقتراحها ؟

انداح العرق على وجه الطبال وابنه • توقفت الحانها • حملقا
في الوجوه المستفسرة • انفرجت شفاهها قليلا • همست بفراة
وشراسة هذا الثعبان • أعربا عن عجزهما ..

تملأ أهل القرية في وقتهم • وجوههم تقطر ألما • اشفاقا •
ياسا • ضاقت بهم السبل ؟ لماذا يرمقني الثعبان هكذا ؟ يسخر
من الأمل الوليد الذي نبت بين ضلوعي منذ قليل ؟ :
- لم يعد هناك منفذ ؟

لماذا توقف سؤال داخل دائرة الصمت حائرا ؟ أصبح السكوت
جوابا ؟ يخشى أهل القرية أن يعلنوا الحقيقة ؟ أحس بأشياء تنهار
داخل • الحبل الفليظ قبل أن ينقطع تبقى منه شعيرات تمسك
طرفيه • نرى هذه اللحظة المنعورة التي ينتهي عندها كل شيء ؟

هرعت عيناها نحو الكانون • الخفير يلتقى في جوفه أعواد
الحطب وقطع « الجلة » • تتصاعد من بين شفتيه حلقات الدخان •
تلوت معها أفكارها المضطربة المختلطة •

الليل يزحف حثيثا • لو زحف الثعبان الى عنقي ؟ لا أملك
له دفعا • ليس أمامي الا أن أثبت للتصير في شجاعة وصبر • •
شعرت بخيوط العرق الثلجي تزحف على ظهرها • أحس
الثعبان ببوارد خوفي ؟ تحققت له الخطوة الأولى التي كان ينتظرها ؟

هتف الخفير :

- تعالى هنا •

ماذا يريد ؟ سيفرس بصبوص النار في عين الثعبان ؟ :

- ضعي يديك في جوف الكانون بسرعة •

أضجع يدي في الكانون ؟ كيف ؟ ؟ ألا يعرف ماذا
سيصيبهما ؟ لو فشلت المحاولة سيزداد الثعبان هياجاً وشراسة ! :
- قلت لك .

على الوجوه الترايبية ابتسامات مشجعة . في مقلتي الزوج ..
بريق ينطق بمعان جديدة .

تراقصت أمام عينيها صورة أبيها :

- ان لك عزيمة قوية لا يملكها أقوى الرجال .

تحجرت قسمات وجهها الأبنوسى . دفعت يديها في جوف
الكانون المتوهج .. سهم يعرف هدفه .. فتح الثعبان كالأنين .
كالذعر . ! هوى على كتف الكانون . انتفض .. كرة في يد طفل
عابت .. انطلق نحو أشجار التوت . لاحقته صيحات وعصى أهل
القرية .

أغنية قبل الموت



حببت عيناه فوق شواشي الذرة • أشعة الشمس الفاربة
تستلقي فوقها • على وقع حوافر الحمامة • ارتعاش المجلنين
الخشبيين • أخذ يفتى •

تقاصرت خطوات الحمامة • قلبها زوجتي كانتا تزحفان عندما
ذهبنا الى سوق الأربعاء :

- تمهل يا خليل • أريد أن أجلس تحت ظل احدى الأشجار
حتى أستطيع أن ألتقط أنفاسي •

اقترب من الكوبرى • أين الرجال الذين يجلسون على جانبيه ؟
لماذا خلت الشوارع من المارة ؟ لماذا أغلقت أبواب الدور ؟ هجرها
أهلها ؟ كانت القرية لا تغلق أبوابها الا في منتصف الليل • أين
بقرة علواني الهزيلة التي تقف هنا منذ أن اشتراها ؟ :

- ما هذه البقرة يا علواني • • ألم تجد في السوق غيرها ؟

- على قدر نقودنا • • اسمها بقرة ،

طاقت عيناه بأسطح الدور • ارتطمتا بأكوام الحطب والقش •
أقراص الجلة • أين ذهبت العصافير ؟ لماذا لم نسمع زقزقتها ؟ أين
اختفت ؟ ما سر هذا الهدوء الخانق ؟ أصبحت القرية مقبرة ؟ لماذا
انقبض قلبي ؟ بما أعلل هذا الشعور الغامض الذى استولى عليه
فجأة ؟ أنتظر كارثة ؟ لماذا أحمل نفسى مزيجاً من القلق والخوف ؟
لو عرفت ... !

شعاع الشمس يحاول أن يخترق الغيوم الداكنة • وجه القرية
تكسوه رعشة الكتابة • تخيم على صدرها • شئ فى أعماقى يحدثنى
بأن أشياء خطيرة قد وقعت • ما الذى حدث ... ؟

راحت الحمامة تركض • لماذا أسرعته الخطو دون أن أهتف
بها محزناً ؟ حتى الحيوانات تعرف ؟ تشم رائحة الخوف ؟ إبراهيم
أفندى يقول :

... - الفيران والشعابين تنبأ بحدوث الزلازل قبل وقوعها بأيام •
مد بصره فى الشارع ، لماذا يبدو بلا نهاية ؟ أين الرجال الذين
يجلسون على المصاطب يتسامرون ؟ الأطفال الذين يملأون الأجران
يلعبون الكرة ... !

انهالت العصا على ظهر حمامته • جرحت شخصخة العجلتين
الخشبيتين الصمت الراقدة •

هيبط المساء • تاهت معالم القرية • ترجل عربته • دق الباب
بقبضته • لماذا لم يأت اليك رد ؟ غادرت زوجتك وأولادك الدار ؟
أين ذهبوا ؟ كيف تخرج زوجتك الآن دون أن ... ؟ لم أتذكر يوماً
أن عدت من الغيظ ووجدتها خارج الدار •• أجدها جالسة أمام
الكانون •• أو تنظف حجرة الفرن والمندرة •• قبل أن أطرق الباب
تسرع اليه :

... من الذى أخبرك اننى ... ؟

— سمعت شخصخة العربية .

توقفت يده عن الطرق . أزهف سمعه . نظر وراءه . الظلام
يبتلع كل شيء . اجتاحه احساس بالترقب والخوف . العصا تدق
الباب دقات متعجلة :

— يا وجيدة .

هزت الحمارة رقبتها . ثقت الأجراس المعلقة حولها الصمت .
تهزأ من محاولتي . . ؟ تطالبني بمعاودة الطرق ؟ ضاع رد زوجتي
في رنين الأجراس ؟ :

— يا ولد . . يا جمعة .

تسلل الى اذنيه صرير الباب الوسطاني . صوت زوجته
مستفسرا :

— من . . ؟

لماذا جاء صوتها خافتا مرتعشا ؟ :

— أنا . . أنا خليل .

أطل وجهها من فرجة الباب :

— لماذا لم . . ؟

— أدخل بسرعة .

— ماذا هناك ؟ ألم تسمعوا طرقاتي . . ؟ مرة أدق الباب
بيدي وأخرى بعصاي . . نائمون على أذانكم . . ؟

جذبتة من ذراعه . . أغلقت الباب . راحت يداها المرتعشتان
تتحسسان كتفيه . في صوت مرتجف :

— الحمد لله على سلامتك . كنت خائفة . .

أقبل ابنه جمعة :

— أين العربية ؟

امتدت يد زوجته نحو الباب • كيف نسيت أمر العربية ؟ ما سر
لهفة زوجتك ؟ لماذا كانت خائفة ؟

راحت تدفع العربية دفعا نحو الباب • أغلقته بسرعة • أسندت
ظهرها إليه • تنهدت • فاضت عيناه بالحرارة :

— ماذا حدث ؟

— لا بد أنك جائع •

— أريد أن أعرف سبب •••

— ستفصل يدك أولا ؟

— اننى •••

— هل أحضر لك لقمة ؟

لماذا تتهرب من أسئلتى ؟ لماذا أسرعت نحو صحن الدار ؟

شيء كالرصاصة يستقر • يضغط على صدرى •

خفقت جفونه • لم تبعد ارتعاشات عينيك الثقيل عن قلبك ؟

لم تبدد الغموض المخيم على •• !

الظلام يتسلل الى كل شيء • فى الظلام العميق • الصمت

اللزج تتوه معالم الأشياء • تتضخم الهواجس •

زحفت يده نحو الطاقة الكائنة خلف باب المنسدة • التقط

علبة من الصفيح • قذف بقطعة سكر فى فمه •

عادت زوجته تحمل اللبنة الصاروخ • أشعلت اللبنة نمرة

خمس • لماذا لا نتحدث ؟ أريد كلمة • جوابا ينعش الصدر • يريح

القلب المكدود •

فرشت قطع الحصار فى الصلاة • وضعت أمامه الطبلية •
أسرعت نحو الكانون • قبض على يدها :

- لن أضع شيئاً فى فمى حتى أعرف ••

لماذا تقلب حبات عقدها الكهرمانى الأصفر ؟ زحف الشحوب
الى وجهه :

- ماذا أقول ؟

- صمتك يزيد قللى •

أقبل الاطفال • رسم المصباح البترولى أشباحا فوق جدران
الصلاة •

احتضنت أبناءها •• همست :

- لا داعى للكلام أمام الأطفال •

زحف الخوف الى قلبه •• موجة برد مميت •• خنق ارتعاشة
فى قبضته • عرق جسده بعرق لزج وتوجسات بخطر قادم • لم
يعد لديه مزيد من التحمل والصبر • زفر • طبطبت على ظهور
اطفالها • طلبت منهم احضار القلة من تحت الزير • اندفعوا فى
سباق نحو الباب الوسطانى •

تهمد :

- لقد ذهب الأولاد •• أخبرينى •• ماذا حدث ؟

قلبت كفيها :

- لا أعرف من أين أبدأ حديثى •

استفاحت حيرته :

- لم أعد أطيع صبرا •

- منذ ساعتين انقلبت احدى سيارات السيرك الضخمة على
الطريق الزراعى المجاور للنهر •

ملأت الضجة الصالة • كل طفل يعلن أنه أحضر القلة • هب
واقفا انتزعها من الأيدي الصغيرة • وضعها فوق الطبلية • دفع
الأولاد نحو حجرة الفرن • اسند ظهره الى الباب المغلق :

— ثم ماذا حدث بعد أن انقلبت السيارة ؟
— هرب منها أحد الضباع • اندفع نحو الكوبرى المؤدى الى
قريتنا • شاهده لطفى أبو القاسم واقفا على شاطئ النهر • أيد
برهام كلامه •
الرؤيا ترتعش فى داخله • تهتز • يدب النمل فى عروقه •

٢

— ألم تأكل ؟

آكل ؟ اللقمة التى أضعها فى فمى ستكون سماً حاراً •
نظر الى اللبنة نمرة خمسة • صارت عشرات من المصاييح •
كل مصباح يطل منه وجه ضبع • يهاجم أهل القرية • يفرون
أمامه •• فى ران جابهها قط •• أخفى عينيه يديه • وضعت زوجته
الطعام على الطبلية • تسلفت الى أنفه أنفاس الطبخ • لماذا تبدو
رائحة الملوخية غريبة ؟ كنت قبل أن أجلس الى الطعام • بخار المرق
يقتحم خياشيمى فى اغراء شديد • أترك أنفى يستروح عبر الحساء
قدمت الىه فخذ دجاجة • نادى أطفالها • راحت أسنانه تلوك قطعة
اللحم • لم يعد للطعام مذاق ؟ حتى قطعة السكر التى استحلبها
لسانى منذ قليل كان لها مذاق الصبار •• !!

عينا زوجته تحصران وجهه • اللقمة فى فمه قطعة كاوتشوك •
يحرك فكيه فى تناقل • كأنما يحمل مقطفا مملوءا بالوحل • لم يعد
لى رغبة فى الطعام ؟ لم أذق شيئا منذ أن غادرت الدار فى الصباح •
أنا على يقين أن زوجتى كذلك • كل منا يعضج مجازاة للآخر ؟
تجاملنى حتى •• !

رفع القلعة الى شفتيه . يتدفق منها علقم ؟ الحنظل يطفح من اعماقي . . ؟

وضع القلعة بجواره . الى متى تتقابل عيناك بعيني زوجتك دون ان ينطق أحكما بكلمة . . ؟ الى متى ستظل صامتا ؟ ماذا تقول ؟ كلمات على مهل تملأ بها هذا الفراغ الذي هبط على الدار كالترعة التي جف ماؤها . . !

نهضت الزوجة . سارت نحو الباب الخارجى . حاولت زحزحة الحجر الضخم الراقد بجوار الحائط . لم تستطع . ماذا يدور برأسها ؟ تريد أن تضع الحجر خلف الباب ؟

نظرت نحوه . تطلب منى النهوض لمساعدتها ؟ آلمى أثقل من هذا الحجر . سنفلق أبواب دورنا على أنفسنا كالكثاكت ؟ فقدت القرية هدوءها وأمنها فجأة بلا مقدمات . . !

أخذ يتجول فى الدار . كل واحد فى القرية ينام . يفلق الباب بالضربة والمفتاح . يظن أن الضبع لن يصل اليه . . ؟

حرك يديه أمام وجهه . يطرد ذبابا وهميا ؟ يحرك الهواء الراكد أمامه ؟ تحول هواء القرية الى دخان خائق ؟

تذكر صادق . دائما يتأخر فى الغيط . يحرس جميزته . يختن ثمارها . لا يعود الا مع أذان العشاء . رأى بعين الخيال على صفحة الخوف كيف وثب الضبع . استقرت أنيابه فى صدر صادق فارتمى الى الوراء . تفجر الدم .

أحس بزوجته تقف بجانبه تنظر اليه بوجه شاحب وعينين تملؤهما الحيرة والخوف . أين حمرة الورد التى كانت تسرى فى وجهك ؟ عندما هممت بمفادرة الدار . . كانت عيناك تشعان بريقا وسعادة . هاهما الآن كومتا رماد . . !

ارتفع صياح الأطفال . . ليتنى عدت طفلا . اللعب معهم .

لا احمل مسئولية ولا هما ولا .. في الصباح اثناء ذهابي الى الحقل
كانت الفرحة على وجه كل طفل في عيني . في ضحكة كل رجل .
في بسمة كل فتاة وامرأة . انقلب كل هذا في لحظات الى قلق .
حزن . رعب .. ؟

سار نحو حجرة الفرن . احتوى اولاده في حضنه . اسئلة
تطوف . تتصادم . تملأ نفسي . كيف حدث ذلك ؟ لماذا اختار
الضبيع قريتنا بالذات ؟ لماذا لم يذهب الى الكفر ؟ كان على بعد
خطوات من الطريق الزراعي .. !

تنهد . ماذا سنفعل ؟ ماذا أقول لأولادي عندما يجدون الباب
مغلقة بالضربة والمفتاح ؟ . يرقد خلفه الحجر الكبير ؟ الى متى سنظل
على هذا الحال نعيش في سجن الخوف .. ؟
عرق جسده . بللته المראה والحيرة ؟ راح يدور على الحصر
... كالطنبور .

٣

جلست أمام الكانون واضعة يدها على خدها . لماذا لا تتحدث ؟
زهدت في الكلام ؟ في عينيها ايجاءات مليئة بكل المعاني . تعلم
ما يشقيك .. ؟ ما يكيدني أننى مشلول الفكر والحركة .. ماذا
أفعل بمفردي ؟ يد واحدة لا تصفق . ليس هناك رجال في القرية ؟
لو قال كل واحد هذا القول ... سنموت في جحورنا .

رفع غطاء الزير الخشبي . اتسعت عيناه . دس رأسه في
جوفه . حفنة من الماء تلمع في قاعه . منذ أن اقتحم الضبيع قريتنا .
ملا الخوف أبار القلوب . جف الماء من الدور .. ! لو ملأت زوجتي
الزير والبلاص أول أمس ؟ كل يوم كانت تذهب الى النهر .. لماذا
لم .. ؟ من أين لها أن تعرف أن الضبيع .. ؟
حمل الاناء الفخاري القابع تحت الزير . اغترف بكفيه الماء .

حط بصره على ابنه الأوسط . منذ قليل صعد السلم ليلقى الحطب
وقرصين جلة . أعلن أن جيراننا يبنون جدران الحظائر المنخفضة .
لماذا يحصنون دورهم الآن بالذات ؟ قررروا عدم مبارحتها .. ؟

تسللت يده الى جيب الصديري . تذكر أن علبة الصفيح
خالية من المعسل . مد يده فى الطاقة .. مجمع الشاى خال ..
آخر قطعة سكر قذفت بها فى فمى منذ يومين .. مزاجى خرمان .
أريد أن أرى كرسى معسل . أشرب كوب شاى . لابد أن السيد
رزق قد أغلق دكانه :

— الى متى سنظل على هذا الحال ؟

ماذا أقول لزوجتى ؟ ألم أتلق هذا السؤال مرارا ؟ كان جوابك
صمتا . أصبح قولها لا يعنى غير كلمات تردد ؟ لا تنتظر جديدا
فى الجواب ؟ :

— وضعت أمام الحمامة « غمر » ذرة خضراء ؟

— نعم .

أحس بالسعادة كلما ابتعد حديثها عن الضبيع و .. لكن الى
متى سيظل هذا الوضع معلقا هكذا ؟ أسبوعا ؟ شهرا ؟ نظل سجناء
فى دورنا .. ! نموت عطشا .. ؟ لا تروى النباتات ؟ يذبل الزرع ؟
تجف كيزان اللدة .. !

احتضن رأسه بين راحتيه . لماذا يذق هكذا ؟ أنا محتاج الى
صدر أريح عليه رأسى . ذراعين تعصران آلامى وعذابى . عينين
أستمد منهما أملا و .. :

— سنضع أيدينا على خدودنا .. ؟ لابد من أن نفعل شيئا .

سنعود مرة أخرى الى الكلام عن الضبيع ؟ ماذا أفعل ؟ وكل
واحد أغلق عليه باب داره . وضع نفسه داخل قمع . لم يعد أحد
يرى جاره . لو كان لدى كل منا تليفون .. ! :

— امتسلمنا لليأس ؟

متى تكف زوجتك عن أسئلتها ؟ ألم تر ما أصبحت عليه
من حزن وكآبة ؟

وقف أولاده الثلاثة أمامه :

— نريد أن نخرج لنلعب في الجرن . لماذا لم يعد الأطفال
يدقون بابنا ؟

أؤخبرهم بحكاية الضبع ؟ . أن أهل القرية يلزمون دورهم
خوفا منه ؟

ولكن الست رجلا من أهل القرية ؟ ماذا تقول لو سألك أحد
أولادك .

« هل تخاف الضبع ؟ » .

« لا . . . » .

« لماذا لا تفادر الدار ؟ » .

لماذا أفتح على نفسي بابا لا أستطيع اغلاقه ؟ كيف أكذب على
أولادي وأنا أطالبهم بالصدق . . . ؟

نهقت الحمامة . أحسست بالحنين الى الانطلاق من الحظيرة ؟
منذ أن ولدت فيها لم تحبس يوما .

عيون الأطفال الضيقة يطل منها ألف سؤال . جاءهم صوت
أمهم . التف الجميع حول الطبلية . . . في صمت .

٤

تسللت حركة من فوق الشطح . تلاخقت نظرات زوجته هلعا .
حبس أنفاسه . عندما يهبط الليل يدهم الصدر شيء غامض مخيف .
ينبت في الأعماق احساس بالقلق والرعب .

جذبت الزوجة الغطاء على جسدها . ضمت أولادها الى صدرها :

- صرنا نلتحف الخوف والظلام ؟ كيف يتسنى لقربتنا التي عاشت سيئة كريمة آلاف السنين أن يعيش عليها هذا الكابوس ؟
كلمات ابراهيم أفندى تضيء في خيالي :
- لا يطر الغيوم الا البرق .

لو كان بيننا الآن ٠٠ ؟ متى يعود من البندر ؟ عندما يأتي
في الاجازة الصيفية تلتف القلوب حوله . سنظل أحياء حتى تنتهي
أيام الدراسة ؟ ماذا سيقول عندما يعلم أن الضبع ٠٠ ! :
« الخوف يلد خوفا . خلعت القرية من الرجال ؟ » ٠٠

دفن الأطفال وجوههن في أحضان أمهم . امتلأت الأعماق
بالشروخ ؟ الى متى سندفن آلامنا فيها ؟ حتى تسرى سمومها .
تتلفها ؟ تحرقها ؟ متى يحس الانسان بالأمان مع نفسه . مع من
حوله ؟

حطت عيناه على اللبنة نمره خمسة . لماذا بهت نورها ؟ هجم
عليها الظلام من كل جانب ؟ الفتيل قصير ؟ لم تفصل زوجتي
زجاجتها ؟ فرغت من الجاز ؟

أرهف سمعه . منذ أن قدم الضبع الى قرينتنا أصبحت
العصافير خرساء لا تغنى . كفت أشجار النخيل عن وشوشاتها .
مات غناء الذين يقضون الليل في الحقول ؟ سكن أنين السواقي ؟
استحال الليل الى أغنية رعب وقهر ؟ صار متاهة متجددة ٠٠ !



- خلعت الدار من الماء . الدقيق . الجاز . الملح و ٠٠ لقد
« زهقت » من الحبس بين الجدران .

ماذا تقصد زوجتك من قولها هذا ؟ تطالبك بالخروج من الدار؟
هذه أن حل الضبع بقرينتنا توقفت الحياة فيها . لم نعد نسمع نبض

وابور الطحين • أين يكمن الموت ؟ في أزقة القرية ؟ بين أعواد الذرة ؟
 خلف الجرن ؟ لماذا تقف عاجزين ؟ لماذا لا نحطم خوفنا ؟ أصابتنا
 البلادة ؟ تبيع اصرارنا • • في استطاعتنا أن نصرع الضبيع • أهل
 القرية أقوى منه • انه لا يعرف الا القدر • دائما يقبع في الأركان •
 هكذا قالت جدتي عندما كانت تروي لنا حكايات كثيرة عن الضبيع •
 لو غادر مخبأه وواجهنا ؟ لكنه يحفر تحت الأقدام • • كالثعبان •
 تكور الليل فوق صدر القرية • كلما حلت العتمة • تطفو
 المخاوف • تهبط على النفس ظلال الموت • يشور تيار من التكهّنات •

٦

انطلقت آهة مكتومة بجانبه • تحسست يده المرتعشة العصا
 الرائدة بجواره • قفز الضبيع من فوق حائط الزريبة ؟ اقتحم حجرة
 الفرن ؟

ميزت عيناه ابنه الأوسط يتلوى على الحصار • يدق الأرض
 بقبضتيه • ينشب أطافره • يفرس أسنانه في كل شيء • ماذا
 أصابه ؟ طعنات الجوع • • ؟ عاوده مخص الجنب ؟ على الرغم من أن
 الحلاق على بعد خطوات من دارى • لا أستطيع الذهاب اليه ليعطى
 ولدى حقنة • برشامة تسكن آلامه : نظراته المستغيثة •

عينا زوجتي تصرخان باللهفة واللوم والحيرة :

— سنترك ولدنا يموت ونحن ننظر اليه ؟

نهض الطفلان الرائدان من نومهما :

— أريد أن أشرب •

— أنا جوعان •

ماذا أقول لأبنائي ؟ خلت الدار من الماء والخبز و • • لا أستطيع
 أن أنظر الى وجوههم • أصبحت أخشاهم جميعا • عيونهم الضيقة

تخترق صدرى • تقرأ على ضلوعي أحرف الخوف ؟ بماذا أريد
عليهم ؟ عيونهم تطرح ألف سؤال فى كل نظرة قلقة • فى كل رعشة
جفن تسأل عن الكارثة • التساؤلات تكبر فى أحداق أولادى • تنتظر
الاجابة • الأيام تمر جافة • رهيبة • اذا انطلقت ضحكة تكون
مكتومة • ذبيحة • تشنجات مريض بالصرع •

وضع يديه على أذنيه • نظرات زوجتى الصامتة تجلدى بالف
سوط • تعذبني • جدران الدار ترمقني • أريد الفرار • لكن •
الى أين ؟ اقتحام الضيق قرينا هدم فى أعماقنا أحاسيس ومشاعر
نحن فى ميسيس الحاجة اليها • ضجت الضلوع بالآلم • أحزاننا
أقسى من كل شيء • ألم يحن الوقت بعد لنضع حدا لعذابنا و • ؟
الى متى سنعيش فى الظلام كالوطايط ؟ متى نخرج من قاع
البئر ؟ • :

— فقدت القرية القدرة على المواجهة ؟

منذ أيام حاولت زوجتى أن تذبح دجاجة • كادت أن تفتس
فى يدها • كان الصدا يغطى السكين :

— سأموت من شدة العطش •

جرت يده على رأس ابنه • ستعيد اليه النعاس ؟ تروى طمأه ؟
ينسى عطشه ؟ :

— أى • • • • •

— ماذا تنتظر • • يا خليل ؟ حتى نموت فى الظلام ؟ نشبع
الديدان من لحمنا ؟ فقدت القرية ارادتها • • ؟

ابراهيم أفندى يردد هذه العبارة :

— الانسان يستطيع أن يفعل ما يريد اذا ملك ارادته •

لكن لماذا لا توجه زوجتك لومها الى القرية كلها ؟ لم تو
سواك ؟ الست زوجها وأحد رجال القرية ؟ ؟

— ساموت يا أبى ..

— ألم تسمع صراخ ابنك ؟ اذهب الى الحلاق .

برقت عيناه . كلمات زوجتى .. لغات عقرب هاتجة ..
هاهى تقولها صراحة .. اذهب الى الحلاق .. فرغ صبرها . !
ماذا تفعل لو كان الضبع يقف أمام الباب . يقر بطن زوجتك ..
يقتل أولادك ؟

مزقت السكون الترابى طرقات خفيفة . برزت العيون من
محاجرهما . تجمع الجميع ؟ خرس آهات ابنه . الضبع يحوم حول
دارنا ؟ يراقب فرائسه المطمئنة ؟ تحولت جوارحنا الى أذان تصغى
الى الكلاب التى تقفز . تنبع من وراء الجدران ؟ حركة الماشية فى
الزرائب ؟ أجنحة الطير على الأسطح . تصغى الى كل هذا . تربطه
بمقدم الضبع ؟ أصبحنا نخاف من كل شيء .. حتى أنفسنا ؟ كل
ليلة نسهر حتى الصباح . عيوننا تنساءل . ستشرق علينا شمس
الغد ؟ كلمة الضبع تملأ . تعبق سماء القرية بالخوف والعفن .
لو هجم علينا . قتلنا خير من عذاب الانتظار .. !

هب واقفا . انبثق فى صدره ينبوع شجاعة مفاجىء ؟ أنياب
الضبع أهون على نفسى من نظرات زوجتى . صراخ أولادى .

دفع الحجر الجاثم خلف الباب . لم يتحرك من مكانه . تلفت
حوله .. وجدت نفسك عاجزا ؟ فى قلبى ثقل لن يفرغ . يملأ
كل أعناقى رهبة ورعبا .

أقبلت زوجته تحمل اللبنة الصاروخ . أولادها يتعلقون بذيل
جليبها . لماذا تقف هكذا ؟ لماذا لم تمتد يدك نحو الباب ؟ العيون
تجلب استفسارا جارحا . طعنة سكين :

— ماذا تنتظر !
— أين العصا .. أو الفأس ؟



سبقته العصا من فرجة الباب • أطل الفجر بوجهه من وراء
السحب • برزت في ذهنه صورة الشيخ صابر بجلبابه الأبيض
وهو يحث القرية على النهوض للصلاة والذهاب الى حقولهم •

شدد قبضته على العصا • أخذ يدق الأبواب بقبضته • رفرف
قلبه بين ضلوعه • أصبحنا على موعد ؟ مللنا الانتظار والجلوس
داخل الجدران ؟ قررنا مواجهة الضبع بدلا من أن نكون فيرانا في
مصيدة .. !

هبت نسمة • تحرك كل شيء • حتى الهواء • ؟ آله
الاستسلام ؟

أطلت العيون المتربصة • الوجوه المترقبة • اندفعت الجموع
متدفقة صاخبة تحمل الشماريخ • الفتوس • آن الألوان للمسح
الحزن من العيون ؟ نعيد البسمة الى الشفاء اليابسة ؟ سنوفق • ؟
لرد لطفى أبو القاسم ذراعيه • توقف أهل القرية • ماذا يريد
أن يقول ؟ سيتساءل عما نفعله بعد أن جنبنا شوارع القرية بحثنا
عن الضبع ؟

انطلق صادق نحو الكوبرى • تبعه أهل القرية • مد ذراعيه • •
بندقية مصوبة نحو فريسة :

— ها هو الضبع • نائم بين أعواد الحلفاء •
نائم ؟ كنا نتمنى أن يكون مستيقظا لكي نقابله وجها لوجه •
لا نريد أن نضربه من الخلف • أشار لطفى بعصاه :

• اصنعوا حلقة حوله • حتى لا يتمكن من الهرب •

ماذا أفعل لو قفز الضبع • أنشب أنيابه في وجهي ؟

ارتعشت ركبتاه • تلفت حوله • ماذا سيقول أهل القرية لو
لحوا الرعشة التي تسرى في يدك ! لست وحدك الذي يملأ الخوف
صدرك ؟ •

تقدم شيخ الخفراء • أطلق مقنوفًا • لماذا لم تنطلق من فم
الضبع • • • لماذا لم ينتفض من نومه ؟ مكشرا عن أنيابه • يندفع
نحونا • •

توقفت العصي المشرعة عندما راح شيخ الخفراء يمزق أطراف
الضبع • • • البلاستيكية •

الطريق طويل . ينحدر في استسلام الى دوامة الظلام . لو
انشق عنه رجل أو صوت يؤنس وحدتي ؟ مع كل خطوة يقف أمامي
الخوف ماردا أبكم . أنفي يمتد . أذناي منشورتان تتلقيان أوهي
الاصوات . قدماي متاهبتان للجري . قلبي يلهث . أحس بالاختناق .

الأشجار كثيفة . . أشباح ليلية . . حفيف الريح يفزعني .
استحال الى عواء ذئاب تطاردني ؟ لو أحس بي أو رأيي سينطلق
ورائي . اذا صرخت أو استغثت سوف يخف أحد لفجدي ؟ أهل
القرية خلف الأبواب ينامون تحت الأغشية . ماذا ينتظرون ؟
سيأتي أحد من قرية أخرى ويقتله ؟ سوف يهبط ملك الموت ويقبض
روحه ؟ لو باغتني الآن . . ! أموت بلا ثمن !

الأمل في الوصول الى القرية أثقل من وطأة الخوف . اقتربت
من المقابر الطينية السوداء . حاولت أن أقتل شعور الرعب في
أعماقي . ربما للحظات . لكنه عاد قويا متدفقا . أريد أن أهرول .
قسماي تزحفان . لو أفسحت الخطو ربما شعر بوجودي . . !

ازدادت العتمة غلظة • عندما كنت صغيرا كنت أتعلق برقبة والدتي • أجد في أحضانها حماية من أشباح الظلمة التي كنت أخشاه •

خفق قلبي بعنف • زلزل ضلوعي • تسمرت مكاني • تطلعت الى الذئب بعينين متخجرتين • راح يتوالب أمامي • عيناه تومضان • من أين جاء ؟ تسلل من المقابر ؟ كان يربض بين أطلال الساقية المهجورة ؟ تتابع صرخاتي عنيفة • هادرة • لماذا ظل الطريق هادئا ؟ ابتلعت الظلمة استغاثتي ؟ لم تغادر صيحاتي شفتي ؟ دوت في صدري ! لكن الصرخات مزقت أذني • فمى كان مغلقا • !

كيف تملصت من مخالبه وأنيابه ؟ تحسست جروحي • غاصت أناملي في بطن دوامة • • شق خنجر • • الصمت يشيع في أوصال القرية • كيف وصلت الى هنا ؟ لماذا لا أشعر بالم ؟ كل البيوت معتمة • لا ضوء في نافذة ولا شعاع يتسلل من بين فكي باب ؟ نباح الكلاب الشيء الوحيد الذي يعلن عن الحياة • • لماذا لا تنطلق اليه بدلا من هياجها فوق الأسطح • خلف الجدران ؟

كوم السباح يقف بعيدا • جبل • يفوح منه العفن • منذ أن احتل الوسعاية لم تصافح أنوفنا نسمة عطرة • صنع الذئب في جوفه حجرا ؟

ذات يوم لمح أبي ثعلبا يتسلل الى حظيرة الدجاج • انطلق وراءه • دخل حجرا في بطن شريط السكة الحديد • أشعل قليلا من القش مع بعض نباتات الحلفاء التي تنمو على فوحة الحجر • • ضحككت جدتي :

- الثعالب والذئاب لها أنفاق كثيرة تحت سطح الأرض • وضعت المفتاح في ضبة الباب • زوجتي تجلس أمام الفرن • تصنع لفائف من القش • تقذف بها في جوف الفرن المشتعل •

جملى راقد فى الزريبة • يجتر طعامه • فى العام الماضى بينما كنت
القم فمه بأعواد البرسيم • عض يدى • أخذت واحدا وعشرين حقنة
فى بطنى • كم حقنة سأأخذها • اليوم ؟ :

— أحضر لك رغيفين ساخنين و ٠٠٠ ؟

رغيفان ساخنان ؟ ليس لدى شهية • الطعام فقد مذاقه فى
الآفواه :

— ماذا بك ؟

أخبرها بما حدث ؟ لم لا ؟

ملأت كلماتي وجهها بالذعر • سقط الرغيف من فوق المطرحة
على الأرض • طوحت زوجتى بذيل جلبابها • هبت زوبعة من الردة
والدقيق • انطلقت الى الأسطى عرنوس الحلاق •

القمر ينشر ضوئه الشاحب الحزين فى صحن الدار • سألت
أبى ذات ليلة :

— متى يتخلص القمر المشتوق من حبل المشنقة ؟ متى تعزف
الأشجار ترانيمها ؟

— عندما تجود الأرض بالرجال •

— الأرض دائما تجود •

أقبل أهل القرية • استحال نظراتهم المتسائلة الى مزيج من
الدهشة والخوف • تشابكت الكلمات :

— متى قابلت الذئب • • ؟

— كيف أفلت من مخالفه • • ؟

— هل تؤلك الجروح • • ؟

هناك جرح بلا ألم ؟ الكل يعرف الحقيقة • انها قاسية • لكنها

لن تكون أقي من مخالفات وأنساب الذئب • لماذا نخفي عيوننا
بأيدينا ؟

عندما كنا أطفالا نلعب « عسكر وحرامية » ننتقل في الأجران
والحواري • حينما يدركنا مطاردونا نلتصق وجوهنا بالحائط •
يقبضون على أكتافنا • ننتقل ضحكاتهم الساخرة •

الأيدي معقودة على الصدور الواجفة • الروس منكسة •
علامات استفهام • العيون مربوطة بمواضع الأقدام العارية • كل
من جاء الآن لم ينتهش الذئب أحدا من أهله أو أصدقائه ؟ ليس لدينا
الشجاعة لنواجه بها التحدي الرابض في ذئب على مدخل قريتنا ؟
عشش الخوف في صدورنا ؟ نسج الجبن خيوطه في أعماقنا ؟

هتف حسن أبو الخير :

- القرية كلها تعلم أن الأرض البور والساقية المهجورة هي
التي جلبت الذئب فلو ...

قاطعه الشيخ صالح خليب المسجد :

- لا تتحدث عن لو فان لو تفتح عمل الشيطان • نريد مخرجا
من هذا التيه •

تبادلت العيون الحائرة تساؤلات صامتة • لماذا نسكت عند
هذا القول ؟

تقدم الأسطى عرفوس نحوى • في يده حقنة ذات ابرة طويلة
لامعة • أغمضت عيني • جرشت أسناني •

استيقظت من نومي على صوت استفادة • من أين مصدرها ؟
عادت الصرخات تمزق السكون • هزمت نحو النافذة •
لطم الظلام عيني • ماذا حدث ؟ تسلل لص الى احدى الحظائر ؟
تشاجر رجل مع زوجته ؟ نشب حريق • • ؟

خرجت النساء مفزعات يستطلعن الخبر • كنست المصاييح
البترولية تلال العتمة • أجساد مهزولة تجرى ملهوفة تجاه الصوت
الحاد المستغيث • التقى أهل القرية في جرن الحاج شربيني •
ازدحمت النوافذ بالعيون المستطلعة • حطت فوق جسد بدوى
عبد المجيد المكوم على الأرض : الدم يتدفق من ذراعيه وعنقه • على
الوجوه الذابلة تقطيب والم • فى أعماق العيون ضيق ويأس •

منذ شهرين وقف الأسطى حافظ الطحان وأعلن ضرورة إيجاد
حل • طاطا أهل القرية رهوسهم •

تسللوا من وابور الطحين متلصصين • لوح بدوى عبد الحميد
بيديه :

— كل واحد يغلق باب داره بالضبة والمفتاح ولا يفادرها بعد
الغروب •

هشم الصمت صوت غليظ •• غراب شارد :

— لماذا لا نقيم طريقا آخر أو مدقا جديدا • بعيدا عن طريق
المقابر وكوم السباخ والساقية المهجورة ؟ حتى نبتعد عن الذئب •
طريق آخر ؟ مدق جديد ؟ ماذا نفعل لو عرفهما ؟ بدوى كان
يظن أنه اذا أغلق باب داره لن •• ا

هتف الأسطى عرنوس :

— سنترك بدوى هكذا ؟

خرجت الاجابة على سؤاله مرتعشة • تلطخها الخيرة والخوف
والخسرة • أصبحت نفوسنا فريسة لها ؟ ماذا ننظر ؟ الا يكفى
ماحدث ؟ حل الحزن مكان البسمة ؟ كل الأفراح التى شهدتها القرية
كانت بلا زفة ولا حتى زغرودة ؟ مضى مولد سيدى الجنزورى دون
ان ترتفع راية له •

عاد الأسطى عن نوس يتساءل :

— ماذا قلتم يا جماعة ؟

خيم الصمت من جديده . ألم يسمعو استفسار الأسطى
عن نوس ؟ :

— السلام عليكم .

— وعليك السلام يا حضرة العمدة .

رفع الخفير الذى جاء معه الكلوب بحذاء كتفه . انسكب الضوء
على جسد بدوى . طافت عينا العمدة بالوجوه المرصوفة . تحركت
شفته . لم يند عنهما حرف . كان يريد أن يقول شيئا وعدل عن
رأيه ؟ انه مشغول بانتخاب الجمعية الزراعية وترميم المدرسة
الابتدائية . فريق كرة القدم . لو كان يهتم بأمر الذئب كما . . . ؟

أحس بالم حاد فى صدرى . ذات مساء شكت أمى من
صدرها . بصقت دما . ركبت حمار حامد بن شوقية . ذهبنا الى
الطبيب . كتب روشتة طويلة :

— الدواء الأول سيمنع تساقط شعر رأسها . الدواء الثالث
سوف يمنع آلام أظافرها أما الدواء الخامس . . .

— انها تبصق دما . . صدرها . .

انكفأ العمدة يتفحص بدوى . صاح حامد بن شوقية :

— كل يوم ضحية ؟ لو كنا ذبابا نطن فوق رأس الذئب
لأنزعناه .

قال الحاج شريئى :

— أخبرنا . . كيف . . . ؟

— نتخلص من الصمت والخوف • اذا كان الذئب يربض عند مدخل القرية • اليوم • ماذا يمنعه من أن يقف أمام أبوابنا غدا ؟
ارتجفت الميـون في المحاجر • ارتعشت الشفاة • طال الانتظار • لم يحن بعد الوقت لنزول الدمل من الخد البدرى ؟
منذ أن برىض الذئب عند مدخل قريتنا • الأرض دب فيها الذبول • الجفاف • البوار • لم تثمر الأشجار • حطت الغربان • الحزن خنق القمر •

شق الأسطى حافظ طريقا بين الأجساد المتراسة • ما زال « ميو » الدقيق يتعلق برموش عينيه وأذنيه :
— لو واجهنا أنفسنا بالحقيقة ستعرف الفرحة طريقها الى قلوبنا التي استقرت فيها الأحزان • لكن ما دمنا نفرس وجوهنا فى الرمال كالنعام • •

تقابلت عيناه بعينى • استفسر عن حالى • ربت على يده •
جلس الأسطى عرنوس بجوار بدوى • أخرج من حقيبته الجلدية حقنة ذات إبره طويلة لامعة •

هتف الأستاذ خليل مدرس الابتدائى :

— أسمى أنواع الخوف الذى يتدفق من نفوسنا •
عدت اتحسس جراحى : غاصت أصابعى فى أفواهها • لها ملمس اللبن « الرائب » :
— لدى اقتراح
— ماهو ؟
— يتطوع رجل من القرية ونقدم اليه بندقية ثم يذهب الى الذئب •

حطت على الوجوه سكينه ووجوم • نكست بعض الرموس •
ومضت فى عيني الالهة :

— ما رأيكم ؟

ما زالت العين الساكنة محصورة بين الأقدام • لم يعجبهم اقتراحى ؟ لم يتوقعوا أن أواجههم بمثل هذا الاقتراح ؟

هتف الأستاذ خليل :

— ماذا قلت يا حاج شربيني ؟

— أنا •• ! لا • لن أكون سوى ضحية •

— معنى هذا أنك •• ؟

— على أى أساس وقع الاختيار على ؟

— الست رجلا من رجال القرية •

— بلى •• ولكننى لست الرجل الوحيد فيها • ألا يوجد فى

القرية خفراء ؟ هيه ! ثم أننى وضعت رتاجا كبيرا لباب دارى •

رتاج ؟ الذئب لا يعرف الأبواب •

قال الشيخ صالح :

— « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة » •

خالد بن الوليد خاض مائة معركة • كان يتمنى أن يموت شهيدا فى

أحداها • لكنه مات على فراشه •

التفت الأستاذ خليل نحو حسن أبو الخير :

— ما رأيك ؟

— لماذا أنا بالذات ؟ فى القرية رجال كثيرون •

لوح الشيخ صالح بيده :

— ما رأيكم لو اخترنا من بيننا ستة رجال وقدمنا لكل واحد

بنديقة ؟

انشقت الشفاء اليابسة عن بسمة دافئة • صادف اقتراح
الشيخ صالح قبولا ؟ منذ أن اجتاحت الطاعون قريتنا لم أر شبح
ابتسامة تخفق على الوجوه • • ترقص في العيون •

واصل الشيخ صالح قوله :

— يد الله مع الجماعة • وأن ينصركم الله فلا غالب لكم •

زعم العملة :

— من هم الرجال الستة ؟

تقدم الشيخ صالح والأستاذ خليل والأسطى حافظ • لحقت
بهم • • :

— أين يقية الرجال ؟

هتف حامد بن شوقية :

— أنا الخامس •

دقت أمه صدرها العظمى بيدها المروقة :

— لا يا حضرة العملة لا تسمع إلى قوله • يريد أن يطمعن
جرحا ما زال ينزف ؟ أنسى أن أخاه الأكبر راح ضحية الطاعون منذ
ست سنوات ؟

جلس حامد على حجر كبير بجوار الحائط • أحسست في
صمته اصرارا • رأس حامد أكثر صلابة من الحجر الذي يجلس
عليه :

— سأذهب مع الرجال ولو بدون بندقية •

لفحت تنهيدة شوقية وجهي • أدركت أن ابنها لن تجدى
معه المجادلة والتوسل ؟ راحت تتمتم ببعاء خافت •

صاح العمدة :

- بقي رجل .

قدم الخفير الكلوب الذي كان في يده الى شوقية :

- أنا ..

احتضنت البندقية . عندما سحبت جسدي من بين الأجساد
المتراصة على الحصار كانت زوجتي نائمة . تحتضن ابني الذي كان
يلقم ثديها .

اقتربنا من الساقية المهجورة . أحاط ثلاثة منا بها . انطلق
الآخرون صوب الأرض البور . الأصابع المتبقية على الزناد . العيون
تبرق بالسخط والوعيد . منعتهم على الذئب ؟

الجنائية . . .

١ - الساقية :

ضم « البشت » الى جسده . لماذا لم يجلب اليه الدفء ؟ صار
قطعة من الثلج ؟ مد بصره . الليل طويل . فاحم . بالأمس كانت
السماء صافية . استطاع أن يعد النجوم . ما زال الفجر بعيدا !
متى يأتي ؟

أرشف سمعه . غفت الساقية ؟ هتف بفتح الله . جاءه صوته
من نهاية التريبة :

- سأفتح الحوال الثاني لكي نروى ذيل الأرض .

ماذا يعني ؟ أنهض من رقدتي وأسوق الساقية ؟

أمسك بالفرقلة . لماذا تسرع الجاموستان هكذا ؟ ما هذا
الصوت الغريب الذي تحدثه الطنبوشة ؟ هرع الى «خوخة» الساقية .
مد ذراعه في ثغرها . . لماذا لا يتدفق الماء بفرارة ؟

• وضع الفرقلة على كتفه • أسرع نحو الجنابية • الدنيا كحل •
 • جلس على الشاطئ • تشبثت يدها بنباتات الحلفاء • تدلت قدماء •
 لماذا لم تصلا الى الماء ؟ ماذا حدث ؟ أغلق يوسف فم التربة ؟ :
 - الدور سينتهي اليوم • لا أنكر أنك تقسم الى « المسنية »
 كيلتين قمع وثلاث كيلات أرز • لكن ...

أغلقت فمه الواسع بصندوق سجائر :

- أرجو أن تنتهى من رى أرضك قبل منتصف الليل • قد
 يأتي مهندس الرى و ...

فنز الى الشاطئ :

- لماذا توقفت الساقية ؟

- انخفض الماء فى الجنابية •

- أغلق يوسف فم التربة ؟

- مستحيل •

كيف نطق لسانى بهذه الكلمة ؟ ظن يوسف أننى رويت
 أرضى ؟ لكن ما زال نصفها شراقى • خشى أن يأتى مهندس الرى
 ويعاقبه ؟ أراد أن يذهب اليه فتح الله يسترضيه بباكو معسل ؟ :
 - نعم • اذهب الى فم التربة واستطلع الأمر •

أذهب بمفردى ؟ لو صحبت فتح الله معى من سيحرس
 الجاموسين ؟

التمتة تملاً الفيطان • قدماء تحفظان الجسور • طرق القرية
 خالية الا من العواصف والوحشة • لو عثرت على أحد يؤنس
 وحدتى ! لو امطرت السماء • ألا يكفيننا هذا القرف ؟

وقف بجانب سور فم التربة • الماء يتدفق فى سكون • لم
 يفلقها يوسف • لماذا انخفضت المياه فى الجنابية ؟ سار نحو المسيرة

الموصلة اليها .. نشر أذنيه . أين صوت الدوامة التي تبتلع الماء ؟
سدتها الحشائش ؟ منذ أسبوع وجدت بها حزمة قش . كادت
تبتلعني في جوفها عندما سحبتها من حلق الماسورة . لكن كان ذلك
في الصباح . كيف أنزل في التربة الآن ! الدنيا برد كالرصاص .
لا يستطيع الانسان أن يرى يده . أخاف ؟ أصدقاؤك يقولون دائما
ان قلبك ميت .

وضع يده على صدره . ابتسم . كيف أكون ميت القلب وأنا
أحس دقاته بين ضلوعي ؟ أكاد أسمعها . أنتظر حتى الصباح ؟
النهار له عينان . الدور آخره اليوم . يوسف طلب مني أن أنتهي
من رى الأرض قبل الفجر . لو انتظرت ... !

سيغلق فم التربة . ستظل الجنازية جافة ثمانية أيام .
نصف الأرض لم يرو بعد ، ستموت نباتات القمح ؟ تصبح الأرض
سبخا !

خلع بلغته وجلبابه . غاصت قدماء وصدره في الماء . مد
ذراعيه .. أعشى يتحسس طريقه .. اقتربت يده من فوهة
الماسورة الاسمنتية ، ارتطمتا بجسم لين . انتفض مفزعا . وثب
الى الشاطئ .. تفوح منه رائحة المياغة والذهول . راح يعدو
وسط الحقول .. طفل مذعور .. أطلق عبر حنجرتة صيحة
استغاثة ، أقبل فتح الله . لاهثا :

— ماذا هناك ؟

حاول أن يوضح الأمر في كلمة ونصف . لم يسعه لسانه
بشيء .

٢ - الجثة :

— ماذا تقول ؟ وجدت جثة محشورة في ماسورة الجنازية ؟
— نعم .

أحس بسيّاط البرد تجلد جسده . أين جلبابه وبلغته ؟ تذكر
أنه نسيهما على شاطئ الترعَة . جذب فتح الله من يده . سارا
صامتين . حشر جسده في جوف جلبابه . دس قدميه في نعليه :
- ماذا نفعل الآن ؟

- يخيل إلى أنها جثة حسين بن بهانة . خرج أمس بعد
العشاء ليشتري باكوشاي ومشط كبريت . لم يعد حتى الآن !
لابد أنه قتل . هناك نار قديم بينه وبين عائلة الزيدية .
- ماذا نقولان ؟

أجفلا . التصق جسدهما . باغتهما الصوت الحشن ؟ فوجنا
بالدم . قى الخفير خلفهما ؟ ضرب الأرض بدبشك البندقية :
- أريد أن أعرف الحكاية من بدايتها حتى نهايتها يا «سى» نعيم
ما هي حكاية «سى» ؟ لماذا تفوح من لهجته السخرية ؟
لماذا يوجه إلى كلامه باللات ؟ :

- لم لا تسأل فتح الله ؟
- وأنا مالي .

هو ماله ؟ لماذا تلاشت حدود الجد والمزاح في قوله ؟
وضع الخفير يده على كتف نعيم :

- جثة من التي ؟

- لا أعرف . لقد مست يدي فخذنا .

- كيف لا تعرف جثة من كان يسير معك قبل المغرب شرق
البلد ؟

- قصص .

- نعم . جثة رمضان اسماعيل .

- ماذا تعنى ؟
- لا داعى للانكار .
- اننى لا أنكر أن رمضان كان معى بعد العصر لكن ..
- لكن اتقوا مواطن الشبهات .
- الله . الله . لم يعد سوى الفسوقى يتحدث بالحديث والآية ؟ :
- تكلم يا نعيم .
- انك تحدثنى وكأنك المأمور .
- ستعرف بعد قليل اذا كنت المأمور أم .. ؟
- ماذا يعنى ؟ يهددنى ؟ كيف جاء الى هنا ؟ سمع صراخى ؟
- أين ذهب ؟ انه لا يملك وسيلة لتهديدى سوى تخويفى بالبوليس .
- ماذا فعلت حتى يتوعدنى ؟ ماذا كان يعنى بأن رمضان اسماعيل كان يسير معى من قبل .. ؟
- هتف فتح ؟ الله :
- أتريد الحق ؟
- نعم .
- أنت مخطئ .
- مخطئ ؟ لماذا ؟ كيف يصدر حكمه قبل أن .. ؟ ألم يسمع كلمات الحفير ؟ :
- يا نعيم انك لم تفهم قولى .
- لا ضرورة لأن أفهم كلامه . انه لم يع ما ينطق به لسانه .
- ما الذى دعانى لأن أستشهد به ؟ ارتكبت خطأ ؟ اقترفت ذنباً ؟
- لماذا قال : أنا مالى ! هل الأمر .. ؟

اقترب من نعيم • أمسك ذراعه :

- أقصد • لماذا لم تهمس في أذني أنك وجدت جثة محشورة
في الماسورة ؟ ثم كان يجب أن تسحب ناعم للدسوقي • أخشى
أن يذهب الى العملة و ..

- لا يهمني •

- وإذا انتقل الخبر من عتبة الى نافذة وأضاف كل لسان
كلمة وتخميننا ؟

- هل ارتكبت جريمة ؟

٣ - ثلاثة رجال وامرأة :

اقبل أهل القرية • وقفوا على جسر التربة • عيونهم مصوبة
نحو الجثة الراقدة في جوف الماء • يريدون أن تنفذ نظراتهم اليها
ويعرفون صاحبها ؟ لماذا يقفون صامتين ؟ عرفوا الحكاية ؟

تعثرت نظرات نعيم فوق شارب العملة المسنون • استقرت
على عينيهِ •

تذكر السهاري التي تستقر في ركن الصالة عندما يشح
فيها الجاز :

- أخبرني يا نعيم بما حدث • « طرايطشي » الكلام الذي
سمعته لم يعطيني صورة واضحة عن ..

- ...

- ألم تسمع قولي ؟ لن يفيدك الإنكار !

إنكار ؟ لماذا تفوح من نبراته رائحة الاتهام ؟ أخبره الدسوقي
أنني .. ؟

جاهد لازاحة الرهبة التي خلفها قول العمدة • ذات يوم سقط حجر كبير أمام بئر الساقية • منع تدفق الماء اليها • قبض أبى على معصى • زحزحنا الحجر نحو الشاطئ • لو كان والدى معى الليلة ! ليتنى لم أذهب الى فم التربة بمفردى • لكن هل دخلنا فى علم ربنا ؟ :

— يا نعيم اعترف لكل جريمة فاعل •

اعترف ؟ ماذا يقصد بهذا القول ؟ يعتبرنى الفاعل ؟ أنا الذى ارتكبت هذه الجريمة ؟ لماذا لا يسأل فتح الله ؟ كنت نائما بجوار المدار تحت « البشت » • هو يسوق الساقية •

لكنه قال وأنا مالى • يريد أن يلصق بى التهمة ؟

عاد العمدة يتوعد بالنيابة والليمان • الرعب يسرى فى عروقه بدلا من الدم ؟ سيلقى بى فى السجن ؟ وأحرم من ارتداء جلبابى السكرتة والحذاء « الأجلسية » والشال الحريرى ؟ • لا أقابل سعاد ؟ لن يتم زفافنا عقب دراس القمح ؟ كيف أحاسب على جريمة لم أرتكبها • ؟

تقدم أكثر من رجل يطلب من العمدة العفو والسماح • تشبث بوقوفه •

هتف قبائى القرية :

— ما رأيك لو دفعنا الجنة فى عرض التربة وسيجملها التيار الى الكفر ؟ وبذلك نبعد عنا المسئولية ونقض الحكاية •

زعى العمدة :

— غير موافق •

نطق أبى بهاتين الكلمتين عندما عرض والد سعاد فكرة تأجيل الدخلة بعد جمع القطن •

- أمر أبي علي أن يكون الزفاف عقب دراس القمح .
- جلس أهل القرية بين أعواد الغاب وفوق سور فم التربة .
- أشار شيخ البلد بيده :
- - يخيل الى أن هذه جثة عزيزة زوجة الحداد .

تأثرت التعليقات :

- - منذ أن جاءت من البندر هذه العاهرة وحلت علينا المصائب .
- - انها ككلبة الطبال . كانت تسير ووراءها جيش من الكلاب .
- صلق شيخ الخفراء بيده :

- - الثرثرة لن تقطع عرقا ولن تنزف دما .
- أول أمس عقدت رهانا مع فتح الله على أن أقطع ثلاثة أعواد
- قصب بسيف يدي بضربة واحدة . ربحت الرهان . ما زال فتح الله
- غاضبا مني ؟ يرميني في مصيبة من أجل قروش معدودات ؟ لا .
- لقد ضحك وطبطب على ذراعي بعد أن دفع ثمن القصب .
- خدمت الضجة . تطلعت العيون نحو القرية . تدهرجت
- الهمسات من فم الى فم :

- - الضابط قادم . الضابط قادم .
- أسرع المسوقي نحوه . أمسك بلبام حصانه الأبيض :
- - اعترف الجاني يا حضرة العمدة ؟
- يعتبرني هو الآخر جانيا ؟ لماذا قلب العمدة كفيه ؟ ترك
- الأمر له ؟ :

- - أنا على يقين أن هذه جثة عبد ربه . كان يحب سعاد التي
- ستزوجها . جاءني الليلة الماضية . أخبرني أنك تهدهه بالقتل اذا
- اقترب من بيت سعاد . طلب مني أن آخذ عليك اقرارا حتى
- لا تتعرض له . لكن يبدو أنك ...

شيء يتعمل في أعماقه • يفسح المكان للغضب والخوف •
خفق رعشة كادت تجتاح جسده • سكنت أوراق النخيل حين ماتت
الريح ؟ انقرست في وجه نعيم ألف عين • طافت نظراته القلقة
على ملامحهم • لماذا تبدو متجهة ؟ ماذا يدور بروسهم ؟ صدقوا
قول شيخ البلد والضابط ! مصائب لا نهاية لها في انتظاري ؟ لدى
قدرة على احتمالها ؟ لو كانت سعاد هنا الآن ؟ لماذا لم تأت ؟ أخبرها
أحد بما حدث ؟ صدقت أنني .. ؟

طفا أمام عينيه وجه أمه • كانت تدعو الله بأن يكتب لك في
كل خطوة سلامة وأن تباعد عنك المصائب • أين كل ذلك ؟ :
- اعترف وساعمالك بانسانية ..

تعاملني بانسانية ؟ يلك التي تشبه خف الجمل تعرف معنى
الرحمة ؟ :

- قل الحقيقة وسوف أخلصك من التهمة •
الحقيقة أنك تريد أن تظهر مهارتك وبراعتك على حسابي أمام
الأمور لكي تحصل على العلاوة والترقية :
- ماذا قلت • ستعترف ؟

- نعم •
- هكذا يكون العقل • لن تنكر جريمتك ؟
- أنا لا أنكر شيئا • لكن أريد أن أعرف هذا الشيء الذي
فعلته ؟ أريد أن أعرفه تفصيلا !
- ستعود الى اللف والدوران ؟ إذا لم تتكلم سألقى بك في
اسطبل الخيل •

اسطبل الخيل ؟ شبانة العوضي عندما ضبطت متلبسا بسرقة
ذكر بط في بيت فقيه المسجد قضى فيه ليلة سوداء كقرون الحروب •

حينما خلع ملابسه أمامي ليستحم في التروعة كان جسده
كالجزرة المشوية :

- فيم تفكر يا نعيم ؟ بدأت تلوم نفسك ؟

لا يلوم الانسان نفسه الا اذا خاف عقابا يتحقق عن فعلته ؟
ماذا فعلت ؟ فتح الله يقول انها جثة حسين ابن بهانة والخير يخمن
انها جثة رمضان اسماعيل وشيخ البلد يدعى أنها جثة عزيزة
والضابط يصر على أنها جثة عبد ربه . . . أليس من الجائز أن
تكون قد قتلت ولم تدر . . . ؟ يقولون أن الانسان يسير أحيانا
وهو نائم . يقوم بأعمال دون أن . . . هل . . . لا . . . لا متى . . . ؟
اننى أخاف من لون الدم . لم أقتل في حياتي ذبابة ولا صرصورا .
عندما ذبحت أمى أوزة يوم عاشوراء الماضى أخفيت وجهى فى باب
الزريبة :

- لا تتعب نفسك . تكلم والا سنحولك الى النياحة .

نياحة ؟ لماذا لا يخبره فتح الله أننى . . . ؟

ارتفع صوت من بين أعواد القاب :

- لماذا لا نخرج الجثة وندفنها ثم تكفى على الخبر مجورا ؟

اختلطت الأصوات . رفع الضابط كراباجه . تمدد الصمت .
صار عواء ؟ :

- لا أريد أن أسمع مزيدا من الكلام الفارغ . لابد أن يأتى

وكيل النياحة والطبيب الشرعى .

٤ - تساؤلات :

تعالث الهمسات . ماذا يقول أهل القرية ؟ كل واحد يحكى
الحكاية بأسلوبه الخاص ؟ يرويها ويطعمها بخياله ! لا يهمنى كلام
أحد . يكفينى أن تقف سعاد بجانبى . أين هى ؟ المهم أن تثق بى .

تعلم أننى لست قاتلا ؟ كيف أثبت براءتى ؟ ستظهر الحقيقة كما
تظهر الشمس من وراء السحب ؟ متى .. ؟

ألقي نظراته الذابلة المتوسلة تحت قدمي الضابط . ماذا
يخشى ؟ الحكاية لاكتها السنة الناس جميعا ؟ اتسع الموضوع وتطور
الى درجة مخيفة !

زعم العملة بنساء القرية أن يبتعدن حتى يتمكن الرجال من
خلع ملابسهم واخراج الجثة . تلكان . أطاحت خيزرانة الدسوقي
وعصا شيخ الحفراء بهن .. ارتفعت صيحاتهن ..

فرش القش وأعواد الصفصاف فى المصلى المقام على جسر
الترعة . أشار العملة الى أربعة من رجال القرية . خلعوا ملابسهم .
وثبوا فى الماء . صوبت العيون المتلهفة نحوهم . اقتربوا من فم
الحنابية

استيقظت الهمسات :

— ترى من صاحب الجثة ؟ حسين ؟ رمضان ؟ عزيزة ؟
عبد ربه ؟ أم جثة انسان آخر .. ؟

عينا عامل التليفون تتأرجحان بين شفتى العملة وفم
الضابط .. بندول ساعة مختل .. أذناه منشورتان . ماذا يريد ؟
يتعجل كلمة ليبلغ الإشارة الى المركز ؟

سقطت الشهقات من الأفواه عندما دفع الرجال الأربعة بجثة
حانوتى الكفر الى جسر الترعة .

الرقص خارج الدائرة ١١٠٠

— يا نهار كالطين .

انتفض من مكانه . كاد ذيل جلبابه أن يغرف « المنقد »
المشتعل . التقط براد الشاي قبل أن ينسكب . لماذا نطقت زوجتي
بكلمتيها هاتين في صوت مشحون بالذهول ؟

وقف على عتبة الباب « الوسيطاني » اكتسحت عيناه القلقتان
صحن الدار . أين هي ؟ فوق السطح ؟ لماذا صرخت هكذا ؟ وجدت
ثعبانا في برج الحمام ؟ مات أحد أبنائي ؟ شبت النار في الدار مرة
أخرى ؟ :

— ماذا حدث ؟

— مصيبة .

لماذا خرجت الكلمة من بين شفثيها مرتجفة تفيض بالحسرة ؟ :

— أخبريني ماذا . . . ؟

— سرقت الجاموسة .

سقطت من فمه شهقة • كلمتها تحملان رنة الفجيعة • طعننا
أذنى ؟ • رنتا بين جدران رأسى بكل معانيهما وههجهما • • ؟
فاضت عيناه بحيرة عميقة • توابثتا بين النقب الواسع في
حائط الزريبة ووجه زوجته الصغير القمحي • لم أر منها مثل هذا
الحزن • لماذا تعكر وجهها هذه المرة ؟ يوم أن شبت النار في دارنا •
اكتسبح الطوفان أرض القمح • لم يعرف الكدر والزوابع • قابلت
كل ذلك بابتسامة • زلزلت كارثة اليوم كيائها ؟ كانت الجاموسة
حبيبة الى نفسها • بعد أن أطفأت النار • سقط سقف الزريبة •
كسرت ساق الجاموسة • **بكت زوجتى :**

— ليت قدمى كسرت بدلا من ساقها •

الكتابة تملأ صدره • رفع وجهه الى السماء ، السحب القائمة
تكسوها • طافت غيوم بعينه • برق في ذهنه سؤال • • ماذا
سيفعل أهل القرية عندما • • ؟ :

« ولا يهمك يا نجدى • ستشترى لك جاموسة بدلا منها • ان
يدك علينا لا تكافأ بمال • لم ننس أنك كنت مسئولاً عن اقرار
الأمن في القرية • أمن فيها الخائف • أوى اليها الضائع • وجد فيها
المهلوف معونة وغوثا • »

« ولكن ما حدث اليوم • • » •

« لا تشغل بالك • لست أول ، ولا آخر من سرقت جاموسته •
مازلت رجل القرية كلها • »

تنهد ، قفز الى مخيلته وجهه علبش • لماذا يخرج لك
لسانه ؟ :

« كنت رجل القرية • • أيام زمان • »

عض شفته في قوة • وضعت زوجته يديها على كتفه في وداعة:
— لا تحزن • لقد ضاعت الجاموسة • قد تعود ثانية •

أمسك بيديها برفق • أزاحهما عن كتفه • تعود الجاموسة ؟
هناك شيء يضيع ويرجع ثانية ؟ تريد زوجتك أن توارى جزئيا ؟
تهون عليك من هول المصيبة ؟

لمح سعيد مرعى يتمسح بالجدران • • كلب أجرب • •
لماذا تتسع على فمه الرطب ابتسامة بلهاء ؟ رأى النقب فى جدار
الزريبة ؟ سينطلق فى أنحاء القرية يقفز فى الأزقة والحوارى •
ينشر الخبر !

لماذا ازدادات ضربات قلبى ؟ فتح اللصوص على بابا • •
كل من يمر بدارك يلقي نظرة داخلها ؟ صارت فرجة تمتد منها
العيون ؟ تعرف كل ما بداخلها ؟ لو كان النقب ضيقا لسددته بقالبين
طوب و • • لكنه واسع يسمح للجمل بالمرور •
عاد ينظر الى النقب نظرة ساهمة • لماذا تقف هكذا ؟ لا تدري
ان كان هذا الذى حدث جلما مزعجا أم حقيقة واقعة ؟ كنت تحرس
دور • حقول القرية • لم تفقد يوما دجاجة • لم يسرق كوز ذرة أو
لوزة قطن • على آخر الزمن تأتى « طورة » لصوص ويسرقون
جاموستك ؟

ارتطم بصره بحبل ملقى فوق المحراث • لو كانت جاموستى
مربوطة فى خصر شجرة السنط القائمة على رأس أرضى ؟ لو فك
اللصوص قيدها وهى تدور فى الساقية ؟ لو تسلقوا الجدران
وفتحوا باب الزريبة وسحبوها فى هدوء ؟ لكن يأتون • يحفرون
نقبا واسعا فى جدار الزريبة ! يتحدثونني ؟ لا بد أنهم غرباء •
من أين جاؤا ؟ اتخذوا من العزبة وكرا لهم ؟ وصمة عار لحقت
بك يا نجدى •

حطت عيناه بين قدميه • وقعتا على بقعة « جلة » على جلبابه
الأبيض الفضيض • برقت حدقتاه بالغيظ والضعف • تلفت

حوله فى اضطراب • سقطت « الماشية » من قبضته المرتعشة •
اقتربت زوجته منه • مد يده نحوها • يستنجد بها فى حيرته ؟ •
— لقد كان ما كان • لم يبق الا النظر فيما يكون •
لو كان أولادى هنا الليلة ؟ عندما يعودون من الحقل •• ماذا
سيقولون ؟ :

« كيف حدث ذلك •• يا سيد الرجال ؟ » •
« ••• »

« كلما قلنا لك دع البندقية تتهمنا بالطيش • تقول ما زلت
صغارا » •
« ••• »

« أين كانت بندقيتك » •
بندقيتى ؟ دائما معلقة فى كتفى • عندما أنام أضعها بجوار
رأسى • علم اللصوص أنها صارت قديمة •• باردة ؟ معهم مدافع
مقرليوز ؟

آخر مرة قالوا لى وأنا أطاردهم :

— الأيام بيننا •• يا شيخ الحفراء •
لماذا لم أقلب هذه العبارة على جميع الوجوه ؟ كثيرا ما حدثنى
قلبى أنهم سيعودون فى ليلة ما •• لماذا لم تتخذ للأمر عدته ؟
لو كنت أعلم أنهم سيأتون ليلة أمس !

تحلقت الأقدام حوله • كيف علم أهل القرية •• ؟ أخبرهم
سعيد ؟ سمعوا صرخة زوجتى •• ؟ طافت عيناه بالوجوه الترابية •
لماذا لم ينطق أحد بكلمة ؟ ماذا دهاهم صاروا كأشجار النخيل
المزروعة فى الجرن ؟ ألم يروا النقب •• الواسع ؟ نظراتهم الصامتة •
تمزق جلبيبي عن جسدى • تمزق أعصابى •

اقترب عيشي منه :

- لا يهكم .. يا شيخ الحفراء .

لماذا لم يقل لي : ولا يهكم يا نجدى ؟ ألا يعرف اسمي ؟
شيخ الحفراء صفعت وجهي .. حجر .. عيش وجهه أسود . قلبه
أشد سوادا . بالأمس كانت زوجتي تغسل اناء نحاسيا . كانت
تدعك سطوحها الخارجى بالتراب والماء . كان جوف الاناء ينهشه
الصدأ الأزرق .

ربت عبد المعطى على كتفه :

- لا تحزن يا نجدى .. الأسد أسد ولو ..

أسد ؟ نهشتنى الكلاب . لكن لماذا نطق عبد المعطى بهذه
العبارة بالذات .. الآن ؟ أراد أن يطيب خاطري ؟ كانت جدتي
تقول هذه العبارة . عبد المعطى يعنى ما كانت تعنيه جدتي .. ؟ :

- أين كنت عندما نقب للصمصص جدار الزريبة ؟

من صاحب هذا السؤال الماكر ؟ لماذا لا أرد عليه ؟ الخجل .
التردد . الحيرة تغرس لسانى ؟

اتسمعت دوامة الضجيج . .. يتبادل أهل القرية نظرات
خاطفة فيها من العجب أكثر مما فيها من الاستفسار ؟

ما زالت السحب الداكنة تسبح على صدر السماء . الغموض
الذى يحيط بى يشيع حولى جوا من الرهبة والخوف :

- ماذا ستفعل يا شيخ الحفراء ؟

أجئتم الى هنا لئى تلقوا بهذا السؤال ؟ لماذا لا تسألوا
أنفسكم ؟ :

- لو كان فى قلعة ريح ينفذه .

أشياء كثيرة قائمة تتكاثف • تتضخم • تملأ أعماقه • وخزه
رد عيش ؟ تملل في وقفته • مسبت قدمه « الماشية » • نار أشد
من لهب المنقد تجتاح دمه • ملأت رأسه كلمات نارية • لكن
الكلمة التي أريد أن أقذفها في وجه عيش لم تأت على
لساني أقول له أى كلمة مما يدور في رأسي ؟ أى كلمة • • ؟
لا • أود أن أطلق الكلمة التي أعنيها • توقظه من غفوته • تمزق
صدره الذي يشبه بثر الساقية المهجورة •

لماذا لزم أهل القرية الصمت ؟ لكي يختار كل واحد منهم
الكلمات الملتهبة • • ثم يطلقها في وجهك بلا تردد ؟ بدأت التعليقات
الساخرة تتطاير من الأفواه وتتناولك يا نجدي ؟ لم تعود على سماع
مثل هذا القول • ماذا ستفعل ؟ تتكلم داخل نفسك ؟ كيف تنزع
ما في القلب من آهات ؟ توقف نرف كل الجراح !

هتف صوت مبجوح :

- ما رأيك يا عبده المعطي ؟

- لا رأى لمن لا يطاع •

لماذا مط البعض شفاههم ؟ من الآخرون اكتافهم ؟ ظننت أنهم
جاءوا يقفون بجانبك وقت المحنة • يخفون عنك وقع الكارثة •
تغير • تمرد عليك أهل القرية ؟ جحدوا فضلك يا نجدي ؟ أنسوا
بطولتك ؟ تناسوا ما قمت به نحوهم ؟ ألم تكن عوناً لهم ؟ ألا يذكرون
أنك فارسهم المهيّب ؟ بطلمهم الذي لا يبارى !

ضبط على نواجذه • سوف يعلمون أنني مازلت شيخ الخفراء •
ساظل الرجل الذي لا يجرؤ أحد على التحديق في عينيه • مازال في
صدرى من الشجاعة انقاسها • سأحملهم على أن ينهضوا لي في
المجالس • يهشون لي ويجاملونني كما كانوا يفعلون قبل اليوم •
لكن كيف بلغت بهم الجراة أن يطلقوا ألسنتهم بما لم يكونوا من

قبل يجرؤون عليه ؟ اللصوص فتحوا فى حائط الزريبة ثقباً من الألم
والحزن والسخرية ٠٠

الرعب يتسرب الى صدره قطرة قطرة ٠ فى المساء كان ابني
الصغير يلهو بقطعة اسفنج مبللة بدم دجاجة ذبيح :

— ألم تسمع صوت الفئوس وهى تحفر الحائط ؟

— فى الحقيقة أننى ٠٠

لماذا لم أكمل عبارتى ؟ ادرك أهل القرية أننى أودعت كل
الامى فى كلماتى القليلة ٠٠

كنت أود ألا يروا ضعفى ٠ لكن لماذا لا ينقطنى عيش
بسكوته ؟ لا يلوك لسانه سوى كلمات الشماتة ؟

أحس فى أعماقه شيئاً يمزقه ٠ سقطت نظراته فى شقوق
الجدار ٠ ستملؤها الثعابين ؟

دار وجهه بعيداً عن النقب الواسع ٠ أشجار النخيل تقف
سائكة ٠ حس قدميه فى جوف التراب ٠ عبت فيه بأصابعه ٠
ماذا يحمل الغد فى طياته ؟ سوف يحترقنى أهل القرية ؟ التفكير
فى الغد على هذه الصورة عذاب جديد يضاف الى آلامى القديمة
الكثيرة ؟

تسلل الى مسمعه هديل الحمام من جوف البرج ٠٠ غدا
ينسى أهل القرية حكاية سرقة جاموستك ٠

لم يبق منها الا فكاهة عابرة للتندر بها فى مجالس المصاطب
والأجران ؟ لكن النقب الذى صنعه اللصوص واسع !

سحب بصره من بين الخطوط التى رسمتها أصابع قدميه فى
التراب ٠ حط على ظهر يده ٠ مازال أثر جرح قديم عميقاً رغم
سنوات طويلة ! لم يغرب عن ذهنى ليلة أن حاول اللصوص سرقة

دكان السيد رزق • كانوا ثلاثة • تبادلنا اطلاق النار • على الرغم من أنني تقهرت امامهم • لم أمكنهم من سرقة باكو معسن • وحت انفخ في صفارتي النحاسية وأنا أجرى في جنون ويدى تنزف دما :

• - أين كانت بندقيتك • يا شيخ الحفراء ؟

ماذا يبغى عlish من وراء أسئلته • • هذه ؟ ظلت بندقيتى تطارد اللصوص حتى أمس القريب • • كان اسمها مثار فخر لكل واحد من أهل القرية •

زمجر خليل وضوان فى وجه عlish :

• - أفصح عن نواياك •

• - اننا نتساءل •

• - بماذا سينفع التساؤل ؟ لا نريد الا السخرية ؟ لماذا لا نتفق على عمل أو تتخذ خطوة ايجابية ؟

تشعبت وجهات النظر • رفع خليل يديه • حط الصمت :
• - بدلا من أن تجعلوا من أنفسكم قضاة وتطاولوا على الرجل بالسنتكم • لماذا لا تقفون بجانبه ؟ أنا على يقين أن اللصوص لن يتركوا لقريننا متنفسا من الراحة • الأمر أخطر من طواهره • اليوم ضرب الرجل • ماذا سيفعل بالنساء غدا ؟

لماذا سكوت أهل القرية • أدركوا مغزى قول خليل ؟

انشق الصمت الترابى عن صوت حشن :

• - ماذا نفعل ؟

اللب خليل كفيه :

• - سبحان الله • ألم أطرح سؤالى بكل وضوح ؟

— نعم ولكن نود أن نقول ..

— أنتم رواد أقاويل .

أطبق الصمت من جديد . بم أفسر نظرات أهل القرية المشتتة ؟ لماذا ينظر بعضهم نحو السحب الداكنة ؟ يتوجسون من المجهول الذى يحدث بهم ؟ فهموا أنهم سيحرمون من أعز ما يملكون ؟

كانت الطمأنينة ترفرف على القرية . لو وقفوا بجانبى اليوم .. ! سأتعقب اللصوص فى عقر دارهم . أسحق رموسهم .

تعلمت عيناه بالشفاه اليابسة . لماذا أطقوا برؤوسهم ؟ لم يتخذوا قرارا ؟ لم يتفقوا على رأى ؟ كلمات خليل فى حاجة الى وضوح !

أطل وجه الشمس من بين فرجات السحب . انسل عبد المعطى من بين الحلقة البشرية .

عندما يسقط المطر تنحدر سيوله الى الشارع . تندفع الى داره الواطئة . لم يستطع أن يمنعها من اقتحام بيته . صار صحن داره بركة ماء . ماذا سيفعل اللصوص بعد أن عرفوا دارى ؟ عيونهم فارغة . لن تكون هذه المرة الأخيرة ؟ ماذا سيفعلون فى المرة القادمة ؟ سيلقون « قتيلا » مشتعلا فوق سطح دارى ؟ جاءوا من هرى بعيدة مبعثرة . حطوا كالذئاب على العزبة ؟

انزلت حبات العرق على ظهره . لماذا تبدو كالثلج ؟ منذ قليل أعلنت زوجتى وأنا أصعب الشأى من البراد أنها تحب الشأى ساخنا . الأشياء الساخنة تلسع اللسان . تكوى الحلق ، بدد الصمت خوار بقرة ، ماذا سيفعل اللصوص بجاموستى ؟ سيذهبون بها الى السوق . يقف أحدهم كاللدال :

« هذه جاموسة شيخ خفراء قرية .. »

أذهب اليهم ٠٠ ؟ أدفع لهم عشرين جنيها ؟ ثلاثين ٠٠ ؟
أنا اخضع ٠٠ ؟ أنا أستعطف و ٠٠ ؟ أدفع « حلوان » ؟ شيخ
الحفراء يشتري الذل ؟ لو فعلت ذلك للحق بك العار .

عاصت أصابع طبال القرية تحت طربوشه الأجرب :

— اذا كانت جاموسة شيخ الحفراء قد سرقت من داره .
ماذا سيفعل بنا اللصوص ؟ هل سيدعون لنا اطمئنانا في صباح
أو مساء ؟

لماذا نطق طبال القرية بكلمة شيخ الحفراء منغمة ؟ لم أعد
أطلق سماعها ؟ لم لا يكون حسن النية ؟ كل كلمة تتناثر من
الأفواه أصبحت تعنيك ٠٠ !

هبت نسمة باردة . لماذا ينظر أهل القرية بعضهم الى
بعض ؟ يفكرون في سؤال طبال القرية ؟ هناك اجابة صريحة أفضل
مما لمح به ؟ يتردد أهل القرية بين الوقوف والانصراف ؟ لو
سكتوا سيصبحون سخرية العب كله . لن تصبح القرية صاحبة
العزة والصولة . لماذا لا يستأصلون الشر قبل أن يستفحل ؟

هتف صوت رفيع :

— ماذا ترى يا طبال القرية ؟

ماذا يرى ؟ ما نطق به كان كافيا . ماذا يضيف الى ما قال ؟
انفرطت حلقة الأقدام . كيف يتفرق أهل القرية دون أن ٠٠ ؟
لماذا كانت تبدو وجوههم جامدة ٠٠ بلا انفعال ؟ الأمر لا يهمهم ؟
ما حدث لا يعنيهم ؟

تساقطت دموعه . ملأت حلقة . شعر بالحاجة الى الحديث
مع أي انسان . التصق به خليل رضوان . رفع يده الى عينيه
ليمسح دموعه :

— الصبر يا شيخ الحفراء •

— ماذا بقى لى •• حتى أتحمّل وأصبر ؟

— لا نملك معك الا الرثاء لأنفسنا •

تقدم طبال القرية • طيطب على كتفه •

نظر نحو مئذنة المسجد • كنت تسير فى شوارع وأزقة
القرية مرفوع الرأس • ماذا ستفعل بعد اليوم ؟ لماذا لا تذهب
الى اللصوص و •• كيف •• لا أحد رأى ولا أحد سمع ••
لكن ماذا تقول لأهل القرية عندما •• ؟ :

« كانت الجاموسة مع أولادى فى الحقل » •

كيف أعلل وجود النقب الواسع فى جدار الزريبة ؟ حل
سيسكت اللصوص ؟ أفواههم أوسع من النقب الذى حفروه ••
تصبح حكاية أخرى حديث كل دار • أنشودة كل شاعر ! اليس
هناك حل بدلا من الانحناء ؟

تراقصت أمام عينيه شجرة السنط القائمة على رأس أرضه •
عندما أصابها الذبول •• ماتت •• ظلت شامخة •

ميلاد رجل حي ١٠٠

ظل الذباب يطن قرب سقف القاعة الواطئة • خمدت
اصوات الأطفال في الحارة • حك ظهره في الحائط • أين ذهبوا ؟
الى الخيمة الكبيرة المقامة في جرن العمدة ؟

أخذت الزوجة تصف له كيف خرجت القرية وقابلت
المحافظ بالهتاف والتصفيق والزغاريد لم يكن يعنيه في شيء
السماع أو التعليق على حديثها • كان مشغولا بحل عقد الخيط
ليرتق ثقب جلابيه الممزق •

جاءته دقات مستعجلة كادت تقتلع الباب الخشبي المتداعى •
رجع الأطفال ؟ ماذا يريدون ؟ ألا ينتظرون حتى ١٠٠ ؟ سوف
بمزقون جلابي • كم مرة فعلوا ذلك ؟ خمس مرات • عشر ؟
ليس في القرية أحد سواي يسخرون منه ؟

زنجرت زوجته • رمته بنظرة من ركن عينيها • تنهدت •
لوت ظهرها • التقطت عصا • ماذا ستفعل ؟ ستضرب الأطفال ؟
سوف يشتمد سخطهم علي • ربما رجموني بالحجارة •

عادت طوحت بالعصا في ركن القاعة :

— شيخ الخفراء •

انتفض واقفا • تلفت حوله • حشر جسده الهزيل العارى
فى جلبابه •

— م • م • ما • ما • ماذا يريد ؟

— لا أعرف • سال عنك • أخبرته أنك موجود •

— ولكن ••

— هل كنت تريد أن أنكر وجودك ؟ ربما دخل القاعة ••
ماذا يكون موقفنا لو •• ؟

جر قلبيه المرتعشتين :

•• — تفضل •• تفضل يا شيخ الخفراء •

انتزع من تحت شاربته الكثيف ابتسامة خفيفة فيها شيء من
السخرية :

— بحثت عنك فى كل مكان تجلس فيه • أخيرا جئت الى
دارك •

أيسمى حجرا رطباً مظلماً فى حارة مسدودة داراً ؟ لماذا بحث
عنى فى كل مكان ؟ :

— هيا مى •

الى أين ؟ لماذا لا أسأله ؟ لو سألته ربما غضب و •

ملأت ابتسامته وجهه الصقرى :

— سنذهب الى الخيمة الكبيرة • وسأقدم اليك شيئاً من
الحلوى •

ماذا سيقدم لي ؟ حبة كرملة ! قرص نعناع ؟ ما سر تطلقه
معي ؟ عهدي به رجل قاس . كلما قابلني صفعني على قفائي . لدغت
عصاه ظهري .

دس يده في جيبيه . قدم اليه قطعة سكر . قلبها في يده .
الفرجت شفاته عن ابتسامة بلهاء . قذف بقطعة السكر في فيه .
السكر فاكهتي والحلوة الوحيدة التي أتذوقها :
- حضرة العمدة طلب مني أن أبحث عنك .

لماذا أرسل العمدة في طلبي ؟ ما سر حضور شيخ الخفراء
بنفسه ؟ لماذا لم يرسل لي خفيرا . . ؟ الأمر مهم ؟ ترى لماذا خصمني
العمدة بهذا الشرف دون الآخرين ؟ أنا في تقديره أحق الناس . . ؟
أولى من . . ؟ لكن لماذا يهتم بي اليوم بالذات ؟ حياتي كلها اهمال
وضياع . طول عمري انسان تافه . أحظى فقط باحتقار الكثير من
أهل القرية . يشرفونني بصفعة على قفائي . ركلة . بصقة . جسدي
نحيف . ساقاي كمودي الحطبل . يسمونني أبا فصاده .
توقف . جذبه شيخ الخفراء من كتفه العظمي . تمزق
جليبابه :

.. قرب . لماذا وقفت ؟

كيف تقابل المحافظ حافي القدمين . مزق الثياب ؟ لو
انتظر شيخ الخفراء قليلا لأتممت رقع الثقوب . لكنها كثيرة . كلما
أصلحت ثقباً أطلت ثقوب أخرى . ربما رق قلب المحافظ وأعطاك
جليباً من الكستور . كستور ؟ المحافظ سمع عن الكستور ؟ ماذا
ترك لكثير من أهل قريتنا ؟ المحافظ لا يعرف الا الصوف والسكروته
والحرير . لو منحك جليباً من الصوف ! انه خشن . سوف يلتصق
بجلدك الخشن . لكنه يجلب الدفء الى جسدك المرقور . تلبس
جليباً من الصوف وتسير في شوارع القرية ؟ تصبح أبا علي ؟ ماذا

سيقول أهل القرية : ماذا لو جذب العيال ذيل جلبابى الصوفى .
تعلقوا به ؟

نظر الى ذيول جلبابه الأزرق الممزق . وقعت عيناه على قدميه
الحافيتين . سوف يراهما المحافظ ؟

يبتسم :

« يا عمدة .. هات له حذاء »

« الحذاء يؤلم قدمي . أريد بلغة »

وضع شيخ الخفراء يده على كتفه :

— لو طلبت منك شيئا لابد أن تنفذه .. مفهوم ؟

لماذا يصرخ فى وجهي هكذا ؟ أظن أننى أطرش ؟ ما هذا
الشيء الذى سيطالبني به ؟ طول عمرى أبقت أوامر الصغير والكبير
فى القرية بلا نقاش . لم أذكر يوما أننى جادلت أحدا . تدمرت أو
اعترضت على شيء . كيف أخالف كلام شيخ الخفراء ؟

مرت بجانبها امرأة تحمل صينية نحاسية فوقها فوطة بيضاء .
تفوح منها رائحة حساء . لعق شفثيه . لو وجدتهم فى الخيمة
الكبيرة يأكلون ؟ لن أنتظر حتى يدعوني الى الجلوس .. اذا
لم أجد طعاما سوف أطفر بسيجارة فاخرة تعمر مزاجي .

وقف أمام الخيمة الكبيرة يتأمل النقوش المتعاقبة فى تكوينات
هندسية متكررة :

— فيم تفكر ؟

ارتجف جسده أخاف . من شيخ الخفراء حتى وأنا أفكر ؟ يحرم
على .. حتى التفكير ؟ :

— اياك ألا تنفذ ما يطلب منك . لقد حذرتك . أسامع ؟

لماذا يكرر كل دقيقة تحذيره ؟ يخشى أن أنسى ؟

اقترب شيخ الخفراء من المائدة الكبيرة التي تتوسط الخيمة .
ابتسم العمدة . مال على أذن المحافظ . ماذا قال له ؟ ماذا يهمنى ؟
لكن لماذا يطيل المحافظ النظر الى ؟ حدثه العمدة عنى ؟ يفكر
فى منحى جلبابا من الصوف وبلغة ؟

ضم مزق جلبابه على كتفه العارية . نكس رأسه . راحت عيناه
تنظران الى قدميه العاريتين أريد أن أجذب نظر المحافظ نحوهما !
وقف شيخ الخفراء أمام الميكروفون . جرت سبابته على شاربه
الكثيف :

— والآن جاء وقت الضحك والمرح .

لماذا غمز لى بعينه ؟ سيطلب منى أن أقلد القرد وهو ينام
نوم العجوز ؟ وهو يعجن عجين الفلاحة ؟ سيحضر بعض أطفال
القرية لالعب معهم ؟

أقبل أحد الخفراء بسحب حمار العمدة . لماذا يبتسم ؟ يا سلام
لو طلب منى أن أركبه ؟ أجلس فوق البردعة المغطاة بالقطيفة الخضراء
وأمسك اللجام المفضض ؟ أهز رجلى ؟ سوف تتناول رقبتي .
تنطح رأسى السحاب . أتمنى أن يرانى أهل القرية و . . .

وقف الحمار بجانبه . جرت يده على ظهره « المظلل » نامت
على رقبته الناعمة . زحفت الى جسده الهزيل . استقرت على قفاه
الخشن . خفي العمدة الخصوصى يصحب الحمار كل يوم الى التربة .
يفضل ظهره و . . بصابون معطر . منذ متى لم أغسل جسدى بقطعة
صابون أسود رخيص ؟ أسبوع . . شهر ؟

أحس بشئ يجذبه من الخلف . ماذا يفعل الخفي ؟ يريد أن

ينتزع جلبابى ؟ كيف ؟ .. اننى البسه على اللحم . لو فعل ساقف
عاريا وسط الخيمة ؟

نظر وراءه . - قوس حاجبيه . ما هذا الذى فى يد الخفير ؟
ذيل عجل ؟ ماذا سيفعل به ؟

سرت الهمسات الضاحكة . رفع شيخ الخفراء يده . هبط
الصمت :

- أرجو الانتظار . سنضع طرف الناف على رقبتك والطرف
الأخر على رقبة حمار حاضرة العمدة . ثم سيجريان وسط الخيمة .
احساس غامض يتمطى . يتحرك . يجتاح صدره العظمى .
ما هذا ؟ ضيق ؟ مهانة ! ملل ؟ تمرد ؟
لماذا توقف ذهناك عند الكلمة الأخيرة ؟ لماذا تعلقت بطرف .
لسانك ؟ ماذا تفعل ؟ تتذوقها ؟ .. !

تراجع خطوتين . صاح الخفير :
- اثبت يا حمار .

حمار ؟ أنا حمار ؟ كل القرية تعرف أننى ربما كنت
أبا فصادة .. أى شىء الا أن أكون حمارا .
امتلات الخيمة بالضحك . التهاب وجهه . دمي يغلي فى عروقي
الصدئة ؟ كل مرة أرى الأفواه تنطلق منها المسكات . لماذا تبدو
بشعة هكذا ؟ سبتلعنى !

وضع يده على صدره . يمنعه من الانفجار ؟ كيف يهزأون
منك ؟ صرت لعبة مسلية ؟ طول عمرك لعبة .. لماذا ؟ ..
ارتعش لسانه فى فمه . لماذا لم ينطق ؟ ألم أجد الكلمة
التى .. ؟ ماذا تريد أن تقول ؟ انفجر فى وجوه الحاضرين ..
أصرخ . أوقفهم عند حدهم ! ماذا .. تقول ؟ تصرخ !

نهض الخفير واقفا • فرك يديه • يعلن عن انتهائه من أداء مهمته ؟ ماذا فعل ؟ وضع ذيل العجل • • ؟

كور قبضته • ماذا ستفعل بالضبط ؟ لا أعرف • كل ما أريده أن أوقف هذا الطنين الذي يملأ أذني ورأسي • أهديء ضربات قلبي ! أطلقه النار المشتعلة في دمائي • لكن كيف ؟ أعترض على هذا السلوك نحو • • ؟ لكن نظرات شيخ الخفراء تشل كل شيء في جسدي • تجعل الصوت الذي يصرخ في أعماقي ضعيفا • • مسلوب الإرادة •

داعب الخفير ذيل العجل بيده • أمسك بكتفه • طلب منه أن يدور حول نفسه • ماذا يبني من وراء هذا ؟ يريد أن يرى كل من بالخيمة الذيل المعلق بظهرى • • ؟

انطلقت الضحكات مجلجلة • تطاولت السنة اللهب في صدره • جذب الذيل المربوط بجلبابه • طوح به • استقر عند قدمي شيخ الخفراء • ابتسم • أبعدت ثعبانا كاد أن يلدغني ؟ ثرت من أجل كرامتي ؟ كرامتك ؟ أنت لك كرامة ؟ لم لا • • ألسنت انسانا بنى آدم ! حط السكون • تشابكت النظرات فوق جسده • هدأت خفقات قلبه • • طائر يرفرف فرحا • • كيف فعلت هذا ؟ يدى هي التي • • ؟ لا • لا • جاءت زوجتى وقذفت بالذيل • كانت دائها تقول لى :

— الى متى ستتحمّل اهانات أهل القرية ؟ لماذا يسمونك « مسخرة » ؟ كيف تسمح للأطفال أن يجذبوا ذيل جلبابك ويركبون على كتفيك ؟ أصبحت الحمار الذي يركبه العيال مجانا ؟ لو صرخت أو لوححت فى وجوههم بقبضتك مرة واحدة • • كانوا يخافون منك • • ابتعدوا عنك •

التقت عيناه بعيني شيخ الخفراء • لماذا يطيل النظر اليك ؟ يذكرك بأنه حذرك ؟ أين أهرب من عينيه المتربصتين ؟

وضع الخنزير الناف على كتفه العظمى • خيل اليه أن نارا
لسعته • أزاح الناف بعيدا •

زمر الخنزير :

— أتدفعه بعيدا ؟ •

— نعم •

خرجت الكلمة كالقنبلة • أنا الذى أقيت بها ؟ لا • لم أتكلم •
لكنه صوتى •

عشش السكون • جذب معه سحب الدهشة والغموض • ترك
شيخ الخفراء الميكروفون أسرع نحوه • • زار :

— كيف تجرات وأبعدت الناف بعيدا عن كتفك ؟

قال من بين أسنانه :

— لست حمارا •

تقلص وجه شيخ الخفراء • تطايرت من عينيه ومضات من نار :

— ماذا تقول ؟ لست حمارا ؟

لماذا ينظر الى هكذا ؟ لماذا لم يرتجف جسدى الهزيل ؟ نسيت
نظرات شيخ الخفراء النارية ؟ لم تعد ترعبنى ؟ لم أعد أذكر يده
الثقيلة وهى تهوى على قفاى ؟ أكان لى كل هذه الشجاعة ؟ أين كنت
أخفيها ؟ كيف لم أبصرها منذ زمن بعيد ؟ :

— لا تخجلنا أمام المحافظ •

لماذا لجأ الى اللين ؟ أدرك أن العنف لن يجدى معى ؟ :

— عيب أكمل اللعبة •

عيب ؟ ناظر المدرسة الابتدائية الرجل الوحيد الذى صرخ لى
وجوه بعض أهل القرية عندما رأهم يحيطون بى • يسخرون منى :

— عيب • عيب يا جماعة • كيف تهزأون من رجل له مشاعر
واحاسيس ؟

كود شيخ الخفراء قبضته :

— ستقوم بأداء اللعبة •• يا حمار أم لا ؟

لماذا ملأ صوته بالوعيد ؟ نفد صبره ؟ ماذا سيفعل ؟
سيضربني ؟ سيقصف رقبتى •• ؟ فليفعل ما يريد •• المهم أننى
لن •• :

— ماذا قلت •• ؟

نفخ صدره • رفع رأسه • ترك لوجهه المتحجر تعبير الرفض
•• الباتر •

الطفلة والقط

مانت الزغاريد على الشفاه المرتجفة • وثبت الدهشة الى
العيون ، استحال العرس الى ماتم ؟ كيف تسلل الى القرية ؟ خدع
كلابها وأفلت من أنيابها ومخالبها ؟ لم يجد بابا مفتوحا سوى باب
داري ؟ حلت على لعنة السماء الغاضبة لأنني لم أعد أصل الفجر
وأصبحت يدي تمتد الى زرع جيراني ؟ أم أن الغرور ركبنى وصار
الضعفاء هدفا لصفعات يدي !

تطلعت اليه زوجته • في عينيها اللتين بلون ماء النيل كلمات
حبيسة رعناء •

قال أبي في الشتاء الماضي :

— رجة الجسد تجلب الدفء الى الكيان المفقود •

لو كنت بمفردي الآن لأطلقت لجسدي العنان • ليخفف من
ضيق أصابع الخوف الفولاذية التي تصهره • لكن جيشا من العيون
المتوثبة تحاصرني • السياط النارية المتحفزة في الأفواه تريد أن
تتلقفني ؟

أشاح بوجهه • ارتطم بصره بالقط الأبيض الرابض بجوار
ابنته الصغيرة • زار • أسد غضوب • • شلل الرعب يجمده في
مكانه • ماذا أفعل ؟ يجب أن أكون حذرا • لو حركت يدي أو
نمست يقول ربما أنشب مخالبه في وجه طفلي النائمة • أو انتزع
عينها • لو استيقظت من نومها ؟ تبدو في رقدتها • ملاكا حالما •
الم ينبئها قلبها الصغير بحلول الكارثة ؟

ذات يوم قالت جدتي :

— الوحوش لا تؤذي الإنسان وهو نائم •

لكن هذا قط • يسرى الخداع والغرر في دماثة • كف عن
الزئير • بدت في عييه المتوهجتين نظرة الوحش الذي اطمأن على
الفريسة • وضع كف الكبيرة على صدر الطفلة الصغيرة • • فارس
يرتكز على مقبض سيفه • • شهقت الزوجة شهقة مشحونة بالدمع :
— ابنتي !

انفضت الطفلة النائمة ، أيقظتها صرخة أمها ؟ أحست
بمخالب القط على قلبها ؟ • تطلعت اليه بعينين ذاهلتين • داعبت
يدها الحريرية قدمه الشوكية • كشر عن أنيابه • انفجرت في
البكاء •

قفز الخوف المجنون الى مقلتيه • وجد نفسه يتقدم خطوة •
نهض القط • في مخالبه وأنياه تحفز الصياد اليقظ • مشاعر
غريبة لا تكف عن التسرب الى أعماقي • ترجفها • غرست فيها
أشواك الرعب ؟ :

— سنقف هكذا مكتوفي الأيدي ؟

ماذا أفعل ؟ يجب أن أوارى خوفي أمام الحاضرين • والا ستكون
فضيحة بجلاجل في أنحاء القرية • لو تقدم أحدهم وطرد القط من
المتدرة ؟ لكن الطفلة ابنتي و • القط في داري !

الخوف • الذعر أصبحا لا فائدة منهما ؟ لا حل للموقف الا بأن
يقتل القط • كيف ؟ تقدم خطوة أخرى • قوس القط ظهره • يبرز
مخالبه • استأنف مواء • حادا لافحا • تدفق من صدقته حمم :
— لماذا لا نلجأ الى الحيلة ؟

الحيلة تخرج الثعبان من الشق • لكن القط ماكر • لو غقت
عينه ؟ يعلم أنني سأأخذه على غرة أو بطريقة أخرى ؟ لو غادر المندرة
في هدوء ؟ كثيرا ما وجدت بعض ثمار النخيل على الأرض دون
مشقة • لكنها ملوثة بالتراب أو يفوح منها العفن • لم أتذكر في يوم ما
أن سقطت في راحتي ثمرة اشتيتها دون أن تقطعها يدي أو قذفت
نحوها حجرا • لكي يفادر القط المندرة لا بد من كلمة أو حركة أو
جهد ولو ضئيلا •

رأى طفلا يقضم كسرة خبز • انزاح ستار الضباب عن ذهنه •
همس في أذن زوجته بكلمات خفيفة • عادت وفي يسها رغيف •
قذف به نحو القط • لم يلق اليه التفاتا • انطلقت في صدره عاصفة
ثلجية • ارتسمت على وجه زوجته الأسمر ظلال الحيرة والفرع •
لم يعد يسمع صراخ طفلته • أخذ كل شيء أمامه يشحب :

— هل نحضر كلب سامي ؟

ازداد مواء القط حدة • يعرف كلب سامي ؟ يتوعد الطفلة ؟
الى متى سأظل صامتا ؟ الطفلة بين أنياب الخطر • لماذا لا أرفع
صوتي بصرخة قد تزعزع ارادته ؟ اليس لي أنا الآخر فم ؟ بأي حق
يفافلنا ويتسلل الى المندرة ثم يضع كفه على صدر الطفلة • • رهينة ؟
ماذا يبني ؟ انتهز فرصة انشغالنا بعرس ابنتي و • • ؟ لكن ربما
أغضبته صرختي • لا • لا داعي للعنف • سأطلب منه في صوت
هاديء هامس أن يفادر داري :

— بس • أخرج •

زار القط • تحفز للانقضاض • تراجعت خطوتين • ما زال سؤال زوجتي يطل من عينيها • لو جاء كلب سامي ربما انقلبت المنذرة الى ساحة يملؤها النباح والمواء • قد تسقط اللبنة السهاري وتشعل النار في الدار • ثم تنتقل من بيت الى آخر حتى تأتي على دور القرية • وان لم تمت الطفلة حرقا ستقتل بين مخالبي القط وأنياب الكلب • أو تموت رعبا • ثم ماذا أفعل لو طرد كلب سامي القط من المنذرة أو قتله وطاب له المقام مكانه ؟!

يجب أن يعمل عقله • يفجر الأفكار والخطط • لكن الخواطر الثقيلة المتناقضة تملأ رأسه •

هتف إحدى النسوة :

— قد يكون القط جائعا • هل أحضر له سمكة ؟ •
قدت بالسمكة على مقربة من القط • حرك شواربه القضية •
تراقصت الفرحة في عيني • سوف تشغله السمكة • سأغافله وأنتزع الطفلة من بين مخالبي •

تقلصت البسبة على شفتيه عندما أشاح القط بوجهه عن السمكة • ماذا يريد ؟ أليس السمك غذاءه المفضل ؟ ظن أن هناك شركا ؟

قال أحد رجال القرية :

— نحضر له قارا ؟

غار ؟ كيف غابت عن ذهني هذه الفكرة ؟ الفار سيتوائب أمامه • لن تساوره الوسائس • لكن الفار عندما سيلمح القط سينطلق في جنبات المنذرة • قد يروغ منه ويختفي في أحد الشقوق أو بين غرارات القمح • ربما كانت أنثى تضع قبيلة من الجرذان • تعمل بأسمانها المتشارية في كل ما يصادفها في البيت •

ما العمل اذن ؟

اقتربت منه زوجته :

— احضر لك الفرقلة ؟

تريد أن ألجأ الى العنف ؟ لم لا ؟ • فشلت معه كل طرق
اللين • بلغت مرحلة اليأس الكامل المطبق • لم يعد أمامي الا أن
أتقدم نحوه • ليكن ما يكون •

شدد قبضته على يد الفرقلة • رفعها • وثب القط جانباً •
كادت الضربة أن تشق صدر الطفلة • أطلقت صرخة مشروخة •
أمسك الغضب بخناق • ارتفعت الفرقلة مرة أخرى • قفز القط
نحوه • فلتت من حلقه صرخة ملتاعة • سقطت الفرقلة من يده •
اندفع الحاضرون من باب الدار •• نحل سقطت خليته بفتة •

بكت العروس • راحت تندب حظها العاثر • في عيني القط
ظلال غريبة • قحة لا يخرسها الا الرصاص ! دهاء الثعالب ؟ سم
الأفاعي ! • أخذ يلهو بالفرقلة على مقربة من الطفلة المذعورة •
المستفسرة • شنفت أذنيه شخصيتها ؟ يهزأ بي ! يسخر مني !
استمر اللعبة !

خنقه الغيظ • لا بد أن يسترد الفرقلة • لو رآها أحد مع
القط •• قد يطلع عليها أهل القرية • محال أن يتركها في كفه •
سيقل رأسه • سيظل يدقها حتى تتحطم جمجمته • جاءه صوت
دقات على الباب • قدم اليه أحد الجيران نبوتا طويلا • زحفت على
شفثيه ابتسامة عريضة • ابتلمت وجهه • منذ قليل استنكر هذه
الفكرة • أقصاها عن خاطره • لكن الآن استطعمها • شعر
بحلاوتها •

انتفض القط كالثعبان . أطبق على نهاية النبوت بكفيه الكبيرتين
قبل أن يمس صدره .

قوامي الى مسمعه صوت العروس :

— يبدو أننا ننفخ في رماد .

أريد أن أسأل . ما العمل ؟ . زوجتي ترمقني من تحت
أهدابها . انكمش السؤال في صدري مهزوما . لو نطقت به ربما قالت
لي : انك لا تجيد الا الجعجعة والردح . . . اقتربت مني العروس :

— لماذا لا نرسل الى مخلوف ليحضر بندقيته و . . . ؟

مخلوف أكل قلب ذئب . قلبه ميت . بندقيته المقرولة نسج
أهل القرية حولها الأساطير ، لكن ربما أخطأ وأصاب الطفلة . ذات
يوم كان الثعلب يشن هجماته على القرية . يختطف الدجاج والبط
والأوز . تربص له مخلوف خلف أحد أكوام السباخ . أطلق عليه
النار . بدلا من أن يصيبه قتل حمارا كان واقفا في الجرن .

الطفلة تنظر اليه . عينها الوادعتان مملوءتان بالدموع والدعر
والتوسل . ماذا أفعل ؟ على بعد خطوات مني ولا أستطيع أن أتقدم ؟

في عروقه تندفق دماء ثائرة . لكنها مشلولة بالجمود .
لا يملك الا الخوف . لم يعد أمامه الا أن يرجو القط . يستعطفه .
لكن الاستعطاف سلاح العاجز . قد يزداد القط صلفا وغرورا .

هتفت زوجته :

— الى متى سننظر صامتين ؟

— ماذا أفعل ؟

كنت أخشى أن أواجهها بهذا السؤال . كيف سقط من بين
شفتي ؟ كان حبيسا بين فسلوعي . جاهلت طويلا على ألا يغادر

صدري الواجف • ماذا ستقول زوجتي الآن ؟ ستتهمني بالعجز
والجبن ؟ ستسقطني من عينيها !

رمته بنظرة جانبية صامتة • بلون ضفيرتها الفاحمتين • لوت
ظهرها • عادت وفي يدها كرة من القماش مشتعلة • قذفت بها نحو
القط • أطلق مواء مبتورا • وثب من المنور الى صحن الدار • تاركاً
وراءه الرغبة والفرقة و •• و •• وشعيرات ثلجية •

الصدى يفوص فى الوحل

حطت العيون الساخرة على وجهه • أطبق جفنيه على الدموع
التي نضحت بها عيناه :
- لقد حذرته •• لكن شيوخ الخفراء كان أسرع اليه من
الحذر •

من صاحب هذا الصوت الذى يعكسه التشفى ؟ لماذا جاءت كلماته
واهنة باهتة ؟ يتحدث عبر صلك تليفونى بعيد ؟ يخشى أن •• !
الشمس •• مسامير متوهجة تنفذ الى الجلد • اختلج جسده •
احتك ظهره بجذع شجرة السنط • انسابت من بين شفتيه آهة
مكتومة • امتزج فيها الألم بالفضب ؟ انصرف أهل القرية عنى ؟ لم
يعد أحد يعيرنى أدنى اهتمام •• ! :
- باع العمدة القرية لمخولف •

استقبلوا كلامك بفتور • لم تجد آذاننا تصغى اليك • ترمى
فيها ببذور مخاوفك • كانت لديك رغبة صادقة لايضاح الحقيقة •
انها واضحة • لكن أهل القرية ينظرون اليها بعيون من زجاج •• !

ونزلت خيوط الدمع على خديه .. ضيع على شيخ الخفراء
الفرصة :

- اعقل يا رضوان .. ستعود الى وجع الدماغ ؟

- آكل مخلوف بعقل العمدة حلاوة .. جاء ليحول قريننا المظلمة
الى مدينة متألثة الأنوار . يقلب حزنها فرحا . ضيقها فرجا .
يفير واقعنا .. لكنه افسد علينا حياتنا .

- لو سمعت مثل هذا القول مرة أخرى .. سوف تذهب في
ستين داهية كما ذهب حسنين أبو المجد وبرهام الذكر .. أسامع ؟

- أفلتت من مخالب الحر نسمة عطنة . نريد أن نتنفس في جو
غير موبوء نتن . تاقث نفوسنا الى هواء منعس يجدد سراديب الظلام
التي عشيشت ونسجت خيوطها بأحكام :

- يا شيخ الخفراء وضع مخلوف يده على كل شيء في القرية .
لم يبق الا أحلامنا .. سوف يخطفها .

- قلت لك أسكت .. أنت بالغ راديو ؟

- مخلوف وأقاربه في قريننا كاللعنة .

- أتريد أن تفتح موال النكد ؟ ستدفع ثمن طول لسانك ؟

- جيبى خال .. لا يستر جسدى سوى جلبابى الممزق .
مرض زوجتى جعلنى أبيع كل ما أملك .
- اذا لم تسكبت سأضربك بالبلغة .

بلغة ؟ الله يرحم أيام كان يمشى حافى القدمين ..

تنهد . كيف تسبلت الى نفسك الكتابة ؟ وقعت عيناه على
حائط مبيضة الجامع الذى تسرب اليه النشع .

زحف بصره نحو دكان مغلوف :

— أسمعت ما قاله رضوان ... يا شيخ الخفرا . ؟ قال أنا
بعوضة ؟ أننى سأجلب الخراب الى القرية .
— لا تلق التفاتا الى قوله . انه يهذى . كان أبوه مجنوناً .

الفصة فى الحلق ... شوكة جارحة ... كان أبى أعقل عقلاء
القرية . رجل مسموع الكلمة .

ارتفع التصفيق والغناء . انطلقت بعض النساء عاريات فى
شارع المسجد الموحد . لحق بهن عشرة رجال تجردوا من ملابسهم .
سقط الجميع فى الوحل . علت الضحكات . القهقهات . تفجرت من
حوله كالسياط . وصل الأمر الى حد ... ؟ مغلوف وأقاربه وعقيدى
و ... دمروا فى نفوسنا أشياء نحن فى أمس الحاجة اليها . الرجال
فى قريتنا مثل النحل الذى أصابه الدوار . النساء فراشات تحوم
حول النار ... ماذا يدخر المجهول فى أحشائه لقريتنا ... !

أقبل طبال القرية . هز رأسه . تلوّج ذو طربوشه :
... بلد كلها عيال .

عيال ؟ لماذا رنت هذه الكلمة فى أذنك بالذات ؟ حركت فى
نفسك ذكريات قديمة ؟ عندما كنت طفلاً تملأ أذقة . شوارع القرية
لعبا وضحكا ... ! أين حمرة الخجل التى كانت تستعل فى عين كل
فتاة عندما تقابل رجلاً غريباً ؟ الحياء الذى يفزو وجه كل امرأة
حينما تتراعى الى أذنيها كلمة غزل طائشة ... عبارة نابية ... !
أين الهواء النقى . النباتات الياقة . الطبيعة الخلابة ؟ تبدل حال
قريتنا ؟

تلقت حوله . الوحل . أكوام السباح تنبعث منها روائح تزكم
الأنوف . يحف بها من كل جانب ألوان من الحشرات . لماذا يقف

طبال القرية ساكتا ؟ ينتظر ردى ؟ يبحث عن مفتاح يضعه فى قفل الصمت ١٠٠

سحق خنفساء تحت حذائه القديم • مازلت أذكر حوارا دار بينى وبين حسائين وبرهام :

- لم يعد الا أن يتسلل مخلوف وأقاربه ومن ضللوهم كعيفى و ٠٠٠ الى هواجسنا ؟ • ما شأنهم بما يدور فى نفوسنا ؟

- لن نمكن الأفاعى من نشر سمومها و ٠٠٠

- سوف يتحينون الفرصة للوثوب على الشيخ عبد الرحمن فقيه المسجد و ٠٠

- ستتسع عيوننا فى الظلام •

وضع طبال القرية يده على كتفه :

- أعلم أنك على حق يا رضوان • مخلوف يريد أن تصبح القرية « بوظة » • لكن ستبقى وحدك مع جرحك القاتل ؟ و ٠٠ كان أبى يقول :

- حلق فى الأشياء جيدا لتعرف الحقيقة •

لماذا لم يكمل طبال القرية عبارته ؟ أحس بيده ثقيلة كالحم • طبال القرية يفهمنى • • يوافق على كلامى • يسب • يلعن سنسفيل جدد مخلوف • العمدة • شيخ الخفراء • عفيفى • عندما يلمح أحدا منهم يسرع نحوه محييا •

انتقلت عيناه بين وجه طبال القرية وشجر الكازورينا التى يداعبها الريح •

عادت أصوات الغناء تنطلق من جديد • لو انتظر أهل القرية قليلا ؟ أعارونى سمعهم ؟ أدركوا معنى قولى • • ؟ عقب الحصاد بدلا من أن تتردد المواويل تنطلق التنهيدات وزفرات خاطفة كالانهيار:

- يا ضياع شقاء العام كله . انثر دمي عرقا .. ونفى النهاية
اخرج بيد فارغة ١٠٠

- يا حش وسطي .. مخلوف أخذ المحصول .

- امتنعت الأرض أن تكافئ جهلنا ؟ امتص مخلوف وأقاربه
عرقنا ودماءنا ؟

ابصر شيخ الخفراء أمام دكان مخلوف . تلقت طبال القرية
حوله . لماذا تسلك كالظل . خشي أن يراه شيخ الخفراء وهو واقف
معي ؟ لماذا لم ينطق ولو بكلمة استئذان ١٠٠ عندما كان الشيخ
عبد الرحمن يجلس في الجامع وحيدا .. أربت على كتفه :

- غدا تقيق القرية من حلمها المزعج .

- متى ؟ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : الدهر كله
غدا .

حطت ذبابة على وجهه . كيف أطردھا وذراعاى مشدودتان
بالخيال الى خصر شجرة السنط بقوة ١٠٠ ؟

ود لو يصرخ . لو ترامت صرخاتك الى آذان أهل القرية .
سوف يهزون رؤوسهم . يستخرون منك :

وجاء لك كلامنا ١٠٠ ؟ لماذا لا تكون مثلنا ؟

« أسير عاريا ؟ مخمورا في شوارع القرية ؟ »

اقتربت الذبابة من عييه . خفقت رؤوسه . طارت . حطت على
ذقنه . تارجح وجه عفيفي أمام بصره :

- لماذا تعترض على ما يحدث في قريتنا الآن ١٠٠ ؟ مخلوف
يقول هذه هي الموضة ١٠٠

: اجتر كلفة الموضة للمحطات : اكتشفتها لأول مرة ؟ أحسن
بالفيظ يشوى صدرى • طوفان داخل أعماقي • يصفط • يبحث عن
مخرج ••

نظر نحو المسجد • حينما جاء مخلوف الى قريتنا قدم الى العمدة
كتابا داخل غلاف من البلاستيك :

— هذا كتاب •• مقدس •

— قرآن •• ؟

— لا ••

شعر بحركة جانبه • وجد مخلوفا على مقربة منه •• طعن وجهه
المتورم بنظرة شوكية • فى الصباح وجدت زوجتى احدى ثمار
الطباطم فاسدة • ألقت بها الى الدجاج • انهالت عليها بمناقيرها :
— رضوان •

— ماذا تريد ••• يا فاحم ؟

سعل فى قبضته • يخفى غضبه ؟ :

— لقد أخطأت حين فكرت فى المجيء اليك •

ما هذا التواضع الذى حل عليه فجأة ؟ يريد أن أطمئن اليه ؟
كيف آمن جانب العقب ؟ لو طفا ما فى أعماقه على وجهه كما
تظهر آثار الحيات الخبيثة الكامنة ••• ؟

لوى عنقه :

— أنا آسف ••• يارضوان •

لماذا اعتذر لى •• ؟ لماذا لا يكون اعتذاره مصيدة •• مؤامرة
ضدك ! دبرها شيخ الخفراء معه منذ قليل حتى لا ترفع عصاك فى
وجهه صاخبا لاعنا ؟

أول مرة سمعت اسم مخلوف كان عمرى تسعة عشر عاما .
كان كبار القرية يتحدثون عنه فى اعزاز وتقدير :

• يقف بجانب كل قرية يسطر عليها قطاع الطرق • يبيع كل شيء من ابر الخيساطة حتى التلاجات والمواقد الكهربائية والبنادق •

احببت مخلوفا •• سوق يبيع لنا البنادق • نسترد أرضنا من ايدى أهل الكفر •• و ••• جاء الى قريتنا •• كأنه كلماته كيزان عسل •• ثم صارت مائة ثم حظلا •

ميزت اذناه صوت أحمد العوضى :

• ماذا يهيك اذا أصبحت القرية « كرخانة » أم ••• ؟

• نختي أنت الذى كنت أرى فيك أملا ••• تقول هذا الكلام يا خسارة • ماذا تركت لعفيفى و •• ؟

• لقد اكتشفت أن فوضويتى القديمة لم يكن لها مبرر •• لا تظلمنى •• لم أتغير •• بل على العكس اننى ما زلت متمسكا بمبادئى ••

• ما هذا التناقض ؟• من قبل زعم العمدة أن مخلوفا هو الشيطان •• ثم أصبحا صديقين حميمين • صار العمدة شيطانا ؟ وأنت اليوم تسمى غيرتك وحبك لقريتك فوضوية •• ؟

اخترقت السكون ضحكة عصفورية • شاهد عريضة عارية • فى يدها ايشارب بلون قوس قزح • صارت القرية مرتعا خصبيا لها ؟ بعد أن كانت تاوهاتا • عرقها • ضحكاتنا تنطلق فى الغتمة • أصبحت تتعالى فى عز النهار • ؟ الرجال يضاجعون النساء فى الشوارع والأزقة كالكلاب • على عينك يا تاجر ؟ ليس أحد أفضل من أحد ••• مخلوف نزع الحياء من العيون • جرد النفوس من الخجل ؟

بصق على الأرض .. أثناء وجودى فى البندر نصحنى الطبيب
ان اصحب زوجتى الحامل الى الشاطئ . عندما وقع بصرها على
الاجساد شبه العارية مستلقية على الرمال . أخفت وجهها بطرف
طرحتها . دقت صدرها براحة يدها الأخرى :

— يا ندامتى .. ما هذه المهازل والفضائح ؟

طلبت منى العودة الى البيت .

لحق شاب بعزيزة . اختطف منها الايشارب . مخلوف كالتعبان
الارقط . جميل . جذاب . من يقترب منه ليعرف لونه .. يلدغه .

نظر الى دكان مخلوف من ركن عينيهِ . بعد أن قابلته فى دكانه
.. أقصد دكاكينه التى تملأ القرية .. صافحت أنفى رائحة الخمر
تفوح من فيه .. اهتزت صورته فى رأسى . اذا ذهب أحد اليه
ليشتري منه شيئا :

— هل معك نقود ؟

— أنت تعرف البثر وغطاءها . جيوبنا خاوية . العام الماضى
أخنت الأرز و .. ووضعت يدك على القطن والبرتقال و ..

— أين ختمك ؟

— ليس معى .

— ابصم هنا .. على هذه الكمبيالة .

مخلوف ينتظر حتى تستأنس الضحية . تستسلم .. ثم
يفاجئها بالمطالبة والتهديد .

توارى قرص الشمس خلف أشجار الكازورينا . كنا نعلم
بالشمس الخضراء . الدور المبتية بالطوب الأحمر والنوافذ
الزجاجية والكهرباء التى تضىء .

ارتطم بصره بالدور المحترقة :

- نعى الحرائق تنوب الأموال .

- أنت لا يهيك الا أن يظل الخلاف والتوتر والعراك قائما بيننا
وبين أهل الكفر لكي يذهب الى دكاكينك .. من يشتري البنادق
وعلب السردين .. الطعام المجفف .. غيرنا .. ؟

أسننه رأسه الى جذع شجرة السنط .. لم أسترح الى مخلوف
.. بالتحديد لا أستريح لعينيه الزرقاوين اللتين لا تستقران أبدا
في محجريهما . امتلأت خزائن دكاكينه بالكمبيلات . مصغ نساء
القرية المرحونة لديه .. بدأ يمسس في أذن كل زبون عما اذا كان
يمتلك حمارا أو جاموسة أو قطعة أرض .. لماذا يتساءل عن .. ؟
لم تبق الا الماشية والأرض يريد أن يضع يده عليهما .. ! لقد حذرت
أهل القرية :

- يا جماعة مخلوف أبعد تاجر عن الكلمات التي ينطق بها ..
زرع في صحراء نفوسنا ورد الأمل . فل الأحلام . ألم يحدثننا عن
المساواة ورجوع الأرض لنا .. ؟ أصبح اليوم كل هه أن يمتص
دماءنا .. مللنا حياته الصرصارية ..

مرقت حمامة بجانبه . كان أبى يحب الحمام . يكره العقارب .
عقب عودتي من البندر رأني مخلوف أمام المسجد . أقبل نحوي

- تفضل يارضوان كوبا من الشاي الأسود .
لويت ظهري :

- حتى الشاي أصبحت له ألوان .. ؟

لمح عريضة تنابط ذراع عليلي :

- مازال مخلوف متمسكا بمبادئه وولائه لقرينتنا . حدث خطأ .
ليس الخطأ في الاستراتيجية ولكن في التكتيك . وسوف يهاعدنا .
استراتيجية ؟ تكتيك ! ماذا تعنى هاتان الكلمتان ؟ ألم يدرك
أهل القرية أن مخلوف وظلاله غرباء حتى في الكلمات التي

يتشددون بها ؟ متى سيساعدنا مخلوف ؟ .. ؟ انه يقيم بيننا منذ
ثمانية عشر عاما . لم يحرك ساكنا .

زاد أهل الكفر تبجحا . كادت أرضهم أن تأكل زمام قريننا .
عندما تعود إلينا ثقتنا بأنفسنا . قدرتنا . ارادتنا ونقرر مواجهة
أهل الكفر لنسترد أرضنا . يثبط مخلوف من عزيمتنا . قال
سيساعدنا قال ؟ انه تاجر . بعد أن يسلم على الزبون تبحث أصابعه
في كفه . يجرى المال بين يديه من روافد متعددة .

جز على أسنانه . يكتم آلامه ؟ يخنق غيظه ؟ في اللحظة التي
علت فيها من البندر مع زوجتي . لمحت عفيفي أمام قهوة المحطة .
لويت عنقي . تجاهلت يده الممدودة نحوي . لا أحب الكلام مع هذا
الفاسد . المناقشة معه سذاجة وعبث . سوف يوجع دماغي ببعض
كلمات يرددتها كاللبقاء . برجوازية . أنا طليعي . أنا تقدمي ..

أخلق مخلوف دكانه . عندما طلبت منه أن يحل عن قفانا ويترك
قريننا . امتدت من عينيه الزرقاوين ألف مخلب :

— انني أعجب . كيف يحشر رجل أنفه في أمور لا تعنيه ؟

— قرينتي لا تعنيني ؟ ..

أقبل شاهين أبو سليمان نحوه :

— ماذا حدث يا رضوان ؟ لم أصدق قول أهل القرية ...
الا بعد أن رأيتك الآن مشدودا الى شجرة السنط .. هل علم
العمدة ؟

— عمدة .. ؟ الله يصلح حالك .. لم يعد يحل ولا يربط ..
مخلوف أصبح كل شيء في القرية .

— لا ترفع صوتك .. أتريد أن تلحق بحسانين أبو المجد
ويرسم الذكر !

كانا يعارضان أفعال العمدة وشيخ الخراء • ارتفع صوتهما بطرد مخلوف من القرية • أخذوا في جوف الليل الى حيث لا يعرف احده لهما مكانا • ترى أين هما الآن ؟ أحياء أم أموات ؟ ذهبوا في لمحة عين من ليلة لم يظهر لها قمر • • قال البعض أنهما محبوسان في دوار العمدة • زعم البعض أنهما بمستشفى الأمراض العقلية • لكن آخرين يصرون على أنهما ماتا منذ أعوام :

- يارضوان مالك ومال مخلوف • • ربنا يهديك • لماذا لا تسير كما يسير أهل القرية ؟

- نقلد بعض ! تسير كالأغنام ؟ نسمع خرافات وسخافات مخلوف ؟

- « موضة » العصر • • مخلوف يقول اننا متخلفون • لا نساير تطور العصر •

- « موضة » العصر ؟ التخلف • • ؟ أن نهرب من كل منطق ؟ نهجر المبادئ ؟ ننبذ القيم ؟ نتخل عن أخلاق القرية ؟ نأخذ تفسيراً آخر لكل شيء جميل !

- أهل القرية يوافقون على • • •

- إذا التفتنا حول الشيخ عبد الرحمن لن ندفع مليماً • • الجري وراء مخلوف سيجعلنا نبيع ملابسنا • ما جدوى الجري وراء الأفكار الجوفاء ؟

زحف الظلام • اقتحمت صورة أحمد العوضى رأسه :

- الطريق الذي تسير فيه طويل • كله أشواك • لست قد مخلوف وأقاربه •

- ذئب الغيط كان شجاعاً ثم صار • • ؟

- لا تقف في وجه العاصفة •

— ساصنع من حبال الياس أوتارا •

زفر شاهين • ضرب فخذه بيديه :

— أنت حر • ذنبك على جنبك •• يارضوان •

بعد شهر من حضور مخلوف إلى قريتنا • جمع شبابها
حوله • راح يقرأ في كتابه المغلف بالبلاستيك •• عندما ترامت
كلماته إلى أذن الشيخ عبد الرحمن ملا الذعر عينيه •• أسرع إلى
مخلوف :

— كيف تدعى أنه ليست هناك كتب سماوية • وإن كلها
أساطير ؟ ••
... —

— هل لديك دليل واحد على أن الحياة طبيعية • لم تتدخل
به في خلقها ؟
... —

سار شاهين بجوار ميضة الجامع • بعد أن رست قدما مخلوف
في القرية • لم يرتفع صوت المؤذن • كاد مخلوف أن يخمد أنفاسه
الشيخ عبد الرحمن •• لولا لطف الله • مضت سنوات وهو يرقد
في داره مشلولاً • يتردد عليه حلاق القرية • يقدم إليه الوصفات
البلدية والدواء :

— مخلوف له حيل لا يصل إليها الشيطان •
— أخشى أن يبدل ديننا • يظهر في قريتنا الفساد •
— ما زال يصر على صحة أكاذيبه •
— ربنا يرد كيده الحاقدين •

ارتفعت أنغام الموسيقى • خدع مخلوف أهل القرية ؟ بهرهم
بتكنولوجيا الأصباغ ؟ آخر صيحات الرقص ؟ دعاهم إليها • • ثم
علمهم إياها • • أصبح كل شيء مباحا في القرية • • !
رأى كلبة طبال القرية تنبش في كوم السباح • بطنها منتفخة •
اندأؤها تتدل • ترى هل وضعت زوجتي ؟ منذ يومين يدهمها
المخاض • أعلنت الداية أنها ستلد اليوم •

زامت كلبة الطبال • لم تعثر على شيء تأكله ؟ هل يجد أهل
القرية شيئا يأكلونه لكي يقذفوا بفضلاته على أكوام السباح ؟ مخلوف
وضع خيرات القرية في بطنه • في أكراش أقاربه • الخنازير لا تعرف
الشبع • تلتهم كل ما يلقي أمامها • لا تميز معها طعاما • كلما أكلت
ازدادت جوعا ونهما •

الليل ينزف ظلاما • هل يمكن أن تضم قريتنا كل هذا القدر
من العتمة ؟ كل شيء تداخل • اختلط • لا رؤية واضحة • غرقت
القرية • • !

تفجرت ضجة عارمة • أطل وجه العملة من بين عشرات
المشاعل • مئات الوجوه الشاحبة كالخريف •

صعد شيخ الخفراء فوق كوم السباح • ابتعدت كلبة طبال
القرية • رفع العملة يديه • طلب مخلوف من أهل القرية السكوت •
ردد عفيفي قوله •

آخر مرة قابلت الشيخ عبد الرحمن في داره :

— هل هذا كلام يرضى الله يا مولانا ؟

— « وقالوا ربنا انا أطعنا ساداتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا » •

مخلوف يخشى الجلوس مع الشيخ عبد الرحمن • عندما
يدخلان في نقاش حول الملكوت الأعلى يتحول كلام مخلوف الى صياح
• • يتسبم واعظ القرية :

— لو كانت لديك حجة دامغة لتحللت بهدوء . . .

مخلوف يخاف . . يخشى الجدل . أنا على يقين أنه إذا واصل
النقاش مع الشيخ عبد الرحمن سوف يلقي بسلاحه الصدى
أمامه .

انحسرت الضجة . هتف العبد :

— لقد منحتك فرصة للتفكير على مهل . هل ستمسك بلسانك
وتعود إلى رشدك . . وعفا الله عما سلف . . ؟

— . . .

— ماذا قلت يا رضوان ؟

ماذا يريد ؟ ألقى بعصا رفضي تحت الأقدام ؟ أتعترف
ب حماقتي ؟ أعلن ندمي والموافقة على ما يجري في قريتنا ؟ أنهير مع
الموضة ؟ نجوم السماء أقرب له . .

أطبق فمه . لم تفلح العيون الزاجرة أن تدفعه إلى الحديث :

— تكلم . .

ما أصاب القرية لا يقال في كلمات . بعد أن أطبق مخلوف
بمخالبه وأنيابه على أعناقنا راح يبت سموه . سود عيشتنا . أخذ
مخلوف من قريتنا منطلقا لكي « يدحلب » . يدخل في « زواريق »
عمد القرى المجاورة . ثم يجلب إليها أقاربه . يحول الهواء المنعش
إلى عفونة . يحل الخراب المستعجل . . كل من عرفه على حقيقته
يلعن اليوم الأسود الذي عرفه فيه . يلتقي باللوم على قريتنا هي التي
جلبته . احتوته :

— مازلت غاضبا على مخلوف ؟

— مخلوف أكبر « مهيأص » . عينه فارغة . كل الذين عرفوه
على حقيقته يلعنون معرفته .

كثير مخلوف عن أسنانه الصدئة • برقت عيناه الطحليتان •
أشاح العمدة بوجهه • استولت عليه الدهشة ؟ فوجيء بردي ؟ وقعت
عيناه على جلبابى الممزق. ٠٠ ؟ :

— متظرك يثير الاشتزاز •

— اذا كان مظهرى يضايقك لا تنظر الى ٠٠ أطال الله عمر
مخلوف ٠٠ وبقي على صدر القرية كالكابوس ٠٠ وان شاء الله لن
تجد « اللضا » •

ملا الانزعاج حدقتى شيخ الخفراء :

— ما هذا الذى تقوله ؟ أيرضيك أن ٠٠ ؟ ستموت ٠٠٠

— يرضينى كل الرضا • ساموت كالشجرة التى شد جسدى
اليها •

شهق عفيفى • تلاقت شهقات ومصمصات الاستهجان :

— يا عالم ٠٠ افهموا معنى كلامى ٠٠ بعد أن « طلب » مخلوف
أقام فى قريتنا • أصبحت الحياة مريرة • محورها البحث عن لقمة
العيش • صار القبيح فى قريتنا جميلا ٠٠

أين صوتى ؟ ابتلعه هدير أهل القرية ؟ تكسر تحت أقدامهم ؟
غاص فى الوحل ؟ مات ٠٠ ! كم مرة أعلنت الحقيقة ؟ مائة مرة ؟
ألف ٠٠ لم يسمعها أحد ٠٠ سمعها أهل القرية ولكن صادفت أذانا
نحاسية ؟ رنت فى أعماقهم ولم يصدقوها ؟ لماذا ينظر أهل القرية
إليك هكذا ؟ لم تعد تعجب أحدا ؟ جاء اليوم الذى يفرح فيك من
يساوى ومن لا يساوى ٠٠ !

الصمت أثقل من حزن الأحزان • هم الهموم • هشم السكون
صوت شيخ الخفراء :

— ألم أقل لكم ٠٠ ؟ لن يجدى معه التسامح •

اهتزت المشاعل • ارتفعت أصوات همجية •
 اشتعلت عيناه بلهب الفضب • يرمونك بالتهمة المجدولة من
 ألياف العفن ؟ يقدفون وجهك بكلمات أقسى من هذا الوضع الذى ••
 ابتسم مخلوف •• رفع يديه بعزاء كتفيه •• مات الضجيج :
 - فكر جيذا يا رضوان •• الحياة أغلى من العناد و ••
 ظن انه سيخدعنى بصوته الخافت الذى يفيض رقة ؟ انمر
 أعرفه •• يحترف الطيبة •• عيناه الخبيثتان يتطاير منهما شرر
 الحقد •
 جعلت عيون أهل القرية على شفثيه المزمومتين • تريد أن تظهر
 منك برد محدد ؟
 تجر وجهه • لمعت حدقتاه باسراء صامت عنيد :
 لوى العمدة ظهره :
 - علقوا فى رقبتك حجرا •• ألحقا به فى النهر •
 اقترب طبال القرية منه •• لاهثا :
 - لقد وضعت زوجتك ••• طفلين •

الذئب

١

بسط راحتيه فوق « المنقذ » المشتعل . أين الدفء ؟ يقف
اللهب عاجزا أمام البرد ؟ الثلج يهب من أعماقي ؟ الله يرحم أيام
زمان . كنت تستحم في التربة في عز طوبى . لماذا تذكرت
السنوات الماضية الآن ؟ الأيام الحلوة أصبحت ذكرى ذائلة في
الصدور ؟

عوت كريح أمشير في صحن الدار . هتلت الزوجة :

- لم يعد حسائين من الفيط . . . ؟

هب واقفا . لماذا تركته بمفرده في الحقل ؟ ما سبب تأخيره ؟
أخبرني أنه سيحش بردة برسيم ويلحق بي . فاجأه الذئب ؟
قفز من فوق ظهر القرن . اندفع نحو الباب . الأفق بلون
السم . عندما تسلس الذئب الى الزريبة . بقر بطن الحروف . ملأت
دعاؤه حفر الوحل .

الطريق ملتو • خال • خيبة أمل • لو تجاوزت عيناك القلقتان
الخط الذي تلتقي عنده السماء بأرض القصب ! يبدو مرتفعا • جدار
من الحضرة يعلوها التراب •

توقف • أدرك أن يده خالية ؟ كيف تواجه الذئب هكذا ؟
لو أحضرت عصا ؟ ماذا تفعل أمام ذئب أجرب ! لو رأى أحد من
القرية ؟ • :

« شعلان • هل تحدث روحك ؟ » •

« ما شأنك ؟ »

رفض أهل القرية الوقوف بجانبى • أعلنوا أن دارى فى

« الهو » •

اقترب من غيط شهاب الدين :

— دارى تقع فى وسط القرية • لن يصل إليها الذئب •

سرب من العصافير تحوم فى السماء • عادت من رحلة النهار ؟
لماذا لم يعد حسانين ؟ محال أن يتأخر فى الفسط حتى الآن • • !
حطت العصافير فوق نخلتين متعاقبتين • ليلة ما سمع ابنى
الصغير عواء الذئب يسرى فى جوف الليل :

« ما هذا ؟ »

— ذئب •

تعلق برقبتي • التصق بصدري • بكى :

— أين أمى ؟

من الجائز أن يكون حسانين قد ذهب الى دار خالته ؟ كثيرا
ما يعود من الحقل يعرج على بيتها • يلقي إليها « غمر » برسيم :
كيف يسير وحده فى هذه الوحشة المعتمة ؟

استدار • تكرور المساء فوق صدر القرية • لماذا يبدو مصفر
الجبين تخضبه الكتابة ؟ كل شيء يحيطه غموض و • • !

عندما يزحف الليل على الجدران الطينية يولد بين جوانحي
خاطر غامض . أشم رائحة لا تخطئها النفس . تجعل شعر الرأس
أشواكا ٠٠

تناهى الى أذنيه صوت . خفيف الريح ؟ خشخشة أوراق
القصب ! لماذا دق قلبي بعنف ؟ هناك شيء يرقبني ٠٠ منذ متى
كان يرصدني ! أاندفع كالبرق ؟ أنتظر حتى أدير ظهري ثم القي
نظرة ٠٠ ماذا أفعل لو وجدت الذئب ورائي ؟ لم لا أتحقق ٠٠
لا أستطيع حتى ان ألوى عثقي :

- أبى .

- حسنين !

لماذا خرج صوتي مشروخا ؟ ما هذا الذي ينفث جلبابه
المزق ؟ دم !

٢

الليل غويط كاللوت . الدور مكومة . منكشمة . الأبواب
مغلقة . تتسرب منها رائحة دفا باحت . تماوجت أمام عينيه
صورة ابنه :

- كيف قلت من مخالب وأنياب الذئب ؟

- أثناء عودتي من الغيط هاجمني ٠٠ انطلق الحمار . سقطت
على الأرض فوق بردعة البرسيم . صرخت . جاءتني أصوات بعض
رجال القرية العائدين من حقولهم . والذئب .

واصل سيره . يبحث عن الحلاق . كنت سعيدا . ترفرف
على الطائفة قبل أن يعرف الذئب داري و ٠٠ أين كل ذلك

منى الآن ؟ قلبى تورم • سيتوقف عن الحفقان • المطلوب حدوث معجزة ؟ انتهى زمن المعجزات • كيف تتحقق فى وقت ملا فيه الحسد والبغض الصدور ؟ خلت القلوب من الايمان ؟ أين التعاطف و .. ؟ لماذا لا نتعاون ؟ تشاغل كل رجل فى القرية بأموره وهوميه ؟ عزفت النفوس عن التضامن والالتقاء ؟

عثر على الحلاق • عبرت نجمة ذات ذيل سماء القرية • هتف :
- سهم الله فى عدو الدين تحرق القوم الكافرين •
كانت جدتي تردد هذه العبارة عندما ترى نجما يهوى :
- لماذا لا يقف أهل القرية بجانبك ؟

كم مرة ناقشنا الأمر بيننا ؟ لم نصل الى حل • قال دورهم بعيدة عن مخالف وأنياب الذئب قال ؟
أقبل أهل القرية • لماذا تبدو العيون مرخاة الأهداب ؟
تجرب ظلال الاشفاق والحزن ؟

تناثرت مصمصات الشفاة • يريدون أن يتساءلوا .. متى ؟
كيف حدث ما حدث ؟ لماذا لم .. ؟ لا أملك الاجابة على سؤال ..
كل واحد يعرف سبب صمتى • يدرك الحقيقة •
تساءل الحلاق وهو يضمه الجروح :
- لا حيلة لنا أمام هذا الذئب ؟

هز الشيخ طنطاوى رأسه :

- ليس فى القرية رجال • ليس كذلك يا شهاب الدين ؟
لا حياة لمن تنادى ؟ انك تنفخ فى قصبة مشروخة • تستطلع رأى شهاب الدين ؟ طول عمره له أذن من طين وأخرى من عجين •
لا يأخذ الأمور بعين جادة • ليس له عمل الا أن « ينجمص » على

المصطبة « يكركر » بالجوزة • يضعك على المارة فى الشارع •
إذا لم يجد أحدا • يسخر من نفسه • منذ شهرين طلبت منه أن
ينبرع بجنيته لشترى بندقية • طرح ظهره الى الحائط • أخذ يثرثر
وكانه عارف واعظ • ثم نهض واقفا :

— أنا أسكن وسط القرية • لن يستطيع الذئب السطو على

دارى •

أغلق الحلاق حقيبته • تسبل شهاب الدين من الباب • لحق
به أهل القرية • الأمر لا يهمهم ؟ فى الصباح يستمتعون بدفء
الشمس • يتحلقون فى الأجران حول « السبجة » • قبل العصر
يشاهدون تلاميذ القرية وهم يلعبون الكرة • بعد الغروب يفلقون
الأبواب • ينامون على قباب الأفران • لماذا لم يفكر أحد فى التعاطف
والتأخى و • • ؟

غرس عصاه فى « بحراية » المنذرة • استحلب تحت أسنانه
احساسا لزجا بالسخط والحزن •

كم فرجت كرب محتاج ؟ أسرعت لغوث ملهوف ؟ ما هذا ؟
رائحة شواء ؟ لا اننى أشم رائحة احتراق بداخلى • كبدى ؟
رجولتى ! ماذا أفعل بمفردى أمام الذئب ؟

٣

اشعلت الزوجة اللبنة نمرة خمسة :

— ماذا قررت ؟

— سأبيع الحمار

— أمصم على شراء بندقية ؟

شرح - ١١٣

لم لا ؟ لا أريد أن يشفق على أحد . سأتولى أمرى بنفسى .
كل واحد ممن يسكن دابر القرية يحمى داره :

— ليست التجربة سهلة

— لكن فيها الخلاص

— ستذهب الى مخلوف ؟

مخلوف مرة أخرى ؟ لو ذهبت اليه سوف يعود الى
مراوشتى ومماطلتى . أرى فى عينيه الزرقاوين شيئاً غريباً .
يتلذذ برؤيتى مهموماً ملهوفاً ؟ طاب له سيرى منكس
الرأس و ٠٠٠ ؟ :

« خذ هذا الفخ الجديد . سيقع الذئب بين فكيه . لن
تستطيع استعمال البندقية الآن . سيتطلب استعمالها
تدريباً طويلاً شاقاً . أخشى أن تخطئ التصويب وتقتل أحداً
من أهل القرية . هذا الشرك الجديد سيضع حداً لعبث
الذئب » .

من قبل قدم الى فخا . اخذ يعدد مزاياه . أكد لى ان
الذئب لن يقلت من قبضته :

— ما دامت النقود فى جيبك لماذا لا تذهب الى سامى ؟
سامى ؟ كيف غابت هذه الفكرة عن ذهنى ؟ سامى يكره
مخلوف كالعصى . يتودد الى . لكن سيقدم الى بندقية ؟

٤

فتحت القرية عينيه على صرخات ملتاعة . سادها لفظ
وهياج شديدان : يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم . ماذا حدث ؟
حلت كارثة ؟ اندلع حريق ؟ سقطت بهيمة فى بئر ساقية ؟

هرع أهل القرية نحو مصدر الصرخات • تكاثفت الجموع •
وقفوا مطأطيء الرؤوس حول شهاب الدين • راح يتمرغ أمام
داره • لطم خديه :

— تسلسل الذئب الى الزريبة • شق بطن الجاموسة •
عندما نهضت من النوم وجدتها « باركة » وأمعاءها تبدل
بجانبها • لو كانت جاموستى ! ماذا أقول للشيخ طنطاوى ؟
استطالت كلمات شهاب الدين المبللة بالدموع • • أنين
موجع •

تبثرت التعليقات :

— كنت أول من أعلن أن دارك بعيدة عن متناول الذئب •
— كيف نسكت على هذا الوضع ؟ نخشى أن يأتى الذئب الى
ديارنا •

أول مرة تواجه القرية الأمر بصراحة واهتمام • كانوا يهزون
رؤوسهم وكان لا يعينهم شيئا • أيقظهم من غفوتهم ما حدث لشهاب
الدين ؟ فى عينيه حيرة ودموع •

أول مرة أراء حزينا • لم الملح على وجهه سوى اللامبالاة والفرح
متذ الطفولة • أدرك الآن عمق المأساة ؟

٥

وقف خلف النخلتين المتعاقبتين متحفزا • توارى الرجال وراء
مدار الساقية • أيديهم تقبض على العصي والفتوس • لم أطلب منهم
المجيء • عندما أبصروا البندقية فى يدي تبعوني ؟

لمح الذئب قادما • دقات قلبه تصم أذنيه • عاد الخوف يتسرب
الى صدرى ؟

ألقى البندقية الى كتفه • ثوب ابنه المهلهل الملطخ بالدم •
صورة شهاب الدين وهو يتمرغ أمام دأره • تتماوج أنامام عينيه •
ضغط على الزناد بقوة • عوى الذئب • قفز فى الهواء
متشنجًا • سقط على الأرض • انطلق الرجال نحوه يلوحون بعصيهم
وفئوسهم •

وثب الذئب الى حقل القصب • أصابته رصاصتى ؟ سوف يعود
بعد أن يشفى جرحه ؟ سيرجع ومعه قبيلة من الذئاب تهاجم دور
القرية !

١

حملت الفأس • سرت أمام الماء المتدفق من « خوخة » الساقية
أزيل السدود • أقتلع الحشائش • وقع بصرى على جثة كلب منتفخة
تحيط بها الأعشاب • قذفت بها فوق الجسر • منذ أن قدم الوافدون
الى العزبة عكروا صفو قرينتنا وهناها •

نظرت نحو توتة صالح :

— كانت قرينتنا آمنة لا تعرف كيدا ولا مكرا • كثرت حوادث
السرقه والسطو •

— ماذا يريد اللصوص ؟ يفرسون فى نفوسنا احساسا بالرعب ؟

هوت الفأس على الحوال • أخذت قدمى تشق طريقا أمام الماء •

عادت كلمات نواره فى أذنى :

— متى تجوب أقدامنا شوارع القرية فى الليل ؟ القلوب تهفو
الى الفرحة كأرض عطشى •

لماذا ينساب الماء من الحوال في تكاسل ؟ التفت نحو الساقية •
توقفت ؟ ألهمت الفرقة ظهر البقرة • كلما عاودتنى عبارة عبد الحق
تلسعنى عقرب هائجة :

— قطاع الطرق يريدون أن تقدم القرية اليهم أتاوة •

وسدت الفرقة كتنفى :

— ما رأيك •• ياشيخ يوسف ؟

— لو وافقنا على مطالبهم فسوف نفقد كرامتنا •

أسرع الماء فى المروى • الى متى تغط القرية فى سبات
الاسترخاء ؟ خمسة وتسعون بالمائة من أهل قريتنا قد عدموا الادراك
والفهم ؟ ماذا ينتظرون ؟ حتى يأتى اللصوص ويختطفون زواجاتنا •• ؟
نظرت نحو يثر الساقية • أطلقت صورة الأستاذ محمد :

— ألف أهل القرية هذا الوضع ؟ لو دارت الساقية •• ماذا
ستحمل من أعماق البئر •• علقما •• ؟

هوى قرص الشمس فى جوف الأرض • ماذا سيفعل الوافدون
إذا لم تستجب لرغباتهم ومطالبهم ؟ سيحرقون محاصيلنا ؟ يسمون
مواشيئنا ؟ لو أدبناهم يوم أن ضربوا طبال القرية ؟ لو خرجنا فى
أعقابهم ليلة أن خطفوا الحسينى بن نواره ؟•• سكتنا • تسامحنا •
ظنوا ذلك ضعفا • حلونا محمد الفندى :

— الطاعون يبدأ بحالة واحدة •• ثم يصبح وباء •

تلفت حولى • لم يعد فى الغيط غيرة •• والمساء ؟ فى الظلام
تسبح المخاوف على أجنحة العتمة • لولا أن كسرت « شعبة »
الساقية • جاء النجار متأخرا •• لانهيت من رى الأرض منذ
ساعتين • لماذا لا أكتفى بهذا القدر •• ؟ غدا أكمل سقى بقية
الأرض • النهار له عينان • لكن الدور سينتهى الليلة •• ! •

- أنا على يقين أن شيئاً خطيراً سوف يحدث ؟ ما هذا الشيء ؟
لا أعرف على وجه التحديد • ارتفع صوت المؤذن لصلاة المغرب :
- عكاشة يسير وراء مخلوف •• زاهر أصبح ظلاً لسامي ••
ثم تبعهم بعض من أهل القرية •• يا مولانا •
- كذلك نولى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون •
- شرح أنين الساقية عروق الصمت • لماذا سكوت أهل القرية
حينما تشاجر مخلوف مع محمد أفندي ؟ :
- أنت لا تفكر إلا في النقود وسبيل الحصول عليها • لا تعرف
الشبيح • جعلت من القرية مزرعة من مزارعك •
- إني أمد لكم يد العون و •• هل هذا •• ؟
- خدعتنا بالوانك المهرجانية • خدرتنا بالوعود والأمانى •
- توقفت الساقية • هزّت الفرقة • واصلت البقرة سيرها •
بأى وجه قابل المدرس الفاضل تلاميذه وأولاده ؟ أدركوا أنه مثل
يقتدى به ؟ منذ أن حل مخلوف بقرينتنا • لم تتوقف هجمات قطاع
الطرق علينا •
- رميت ببصري نحو العسبة • تذكرت حواراً دار بيني وبين
زاهر :
- يبدو أن مخلوف غير جاد في مساعدتنا •
- قلت لكم هذا الكلام مراراً •• لم تصدقوا قولي • ماذا
تنتظرون من فاسق ؟
- سامي عظيمة زرقاء •
- من أهل الكتاب •

.. الأستاذ محمد يقول ان بيننا وبينه ثارا قديما .. كيف
يكون مخلصا في مساعدتنا ؟

اتم المؤذن الآذان :

.. مخلوف وسامي لا يعرفان الا المزيد من الأخذ والابتزاز ..
ماذا قدما لقريتنا يا مولانا ؟

« قالوا أؤذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا » قال موسى:
« عسى وبيكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض » .
سحبت البقرة . ألقيت نظرة قلقة ورائي . لماذا تتمهل في
سيرها ؟ ألا تدرك أن الخوف يسير في الطرق ؟ مفروش في كل
مكان ؟ نتنفسه .. !

كنت أن أسقط في حفرة . في صدرى عشرات الاستفهامات ..
استحالت أعماقنا الى حقل ملغم بالأسئلة والاستفسارات ؟
انهالت قبضتي على ظهر البقرة . تصر على .. ؟ لا بد أن
قلبها يحدثها بأن الخساطر الذي قفز الى رأسى منذ قليل ليس
الا وهما .. ؟ الحيوانات لديها احساس أصدق من احساس
الإنسان .. !

آخر مرة قابلني مخلوف :

.. ما رأيك في الشيخ يوسف ؟
.. مولانا .. ؟ يحفظ كتاب الله . فقيه القرية .. مفتيها .
مركز التفافنا .

تطلعت الى السماء . لماذا تبدو النجوم مرتعشة ؟ خائفة ؟ في
جزع من وحشة الليل ؟ ليلنا مغمم بالصمت . الترقب . المראה .
جبل يجثم على القلب . عندما يحل الظلام نهض مرارا لتناكده من
اغلاق النوافذ والأبواب . تسرع أيدينا الى العصي والنباييت الراقدة

بجانينا كلما التقطت آذاننا المنشورة حركة متسللة خارج الجدران
وقفت البقرة • بالث أصاب الرذاذ جلبابى ؟ منذ أن حطت النجاسة
بالزربة • أصبح التوتر ملتصقا بأقدامنا • نجاهه أينما نسير ؟

غرست بصرى على امتداد الحقول • أين يكمن اللصوص ؟ فى
مصرف صالح ؟ فى بئر الساقية المهجورة ؟ فى أرض جبريل
المزروعة بالأرز ؟ على بعد خطوات منك ... !

سرت فى جسدى رجفة • ماذا تفعل لو « طبوا » عليك •
أحاطوا بك ؟ لو صرخت لى يسمعك أحد من أهل القرية فى هذه
المنطقة البعيدة بعد الغروب كل واحد يفلق باب داره بالضبة
والفتاح • لا يفادها الا فى الصباح حتى لو جاءه صوت استغاثة
من صحن الدار •

مزق الصمت خوار البقرة • هرعت يداى نحو فمها • أطبقنا
عليه • تسلسل الخوار من بين أصابعى • فمها واسع كافواه
المتشردين • سسوف يلفت انتباههم كما يجذب صياح الدجاج
الثعالب • كانت البقرة صامتة طوال النهار • لم يحل لها الخوار
الا هنا الآن ؟ لماذا لم يصبها الخرس • كما أصاب أهل القرية • ؟
أذناى مفتوحتان عن آخرهما • ضربات قلبى تدوى بين جدران
رأسى •

دقت يدى ظهر البقرة بغيظ • لولا أن نسييت الفرقة والفأس
بجوار الحوال لمزقت جسدى • تتحدانى ؟ لم تعد تعجبك الحياة
معى ؟

أمسكت بذيلها • أضعه فى فمى ؟ أغرس فيه أسناني • ؟
لكى تسرع الخطو • تكف عن الخوار • ؟ ماذا أفعل لو زادت من
خوارها • ؟

اقتربت من الكوبرى • الليل على مشارف القرية وحش
مخيف • وقف شعر راسى • صار شوكا ؟ الشهر الماضى وجد اهل
القرية الحسينى بن نواره مقتولا على الكوبرى :

— لا بد لكل جريمة من فاعل .. ترى من يكون الفاعل ؟
— ثلاثة أو أربعة من اللصوص • اختطفوا الحسينى من
داره و ..

لكن لماذا لم تبك نواره ؟ :

— سيعيد البكاء ابنى ؟

لفت « رواسة » البقرة حول قبضتى • ترى من عليه الدور ؟
صالح .. ؟ الشيخ يوسف ؟ محمد أفندى ؟ أنا .. !

ما هذا الذى يبلى ثيابك ؟ عرق ؟ شىء آخر .. ؟ لا داعى •
أخجل أن أذكره •

أتمنى أن أرى شبح كائن حى • الملح وميض ضوء من بعيد •
أسمع نباح كلب يجلب الى الطمأنينة • أين نباح الكلاب وأصداؤها
الرنانة التى كانت تتردد فى طرقات القرية ؟ أصبحت لا تخرج الى
الشوارع ؟ ترفع أنوفها الرطبة • تتشمم رائحة الخوف والتوتر من
فوق سطوح المنازل ؟

تنهدت • كنا نترك المخاوف .. الأحقاد عند الأبواب المفتوحة •
ننام نوما عميقا •

الآن نبتلع نزيف الألم ؟ نصحب الرعب • الأرق الى فراشنا ؟
رضينا بتمريغ أنوفنا فى التراب ؟

وطئت قدمائى الكوبرى • لماذا تسمرت مكائى ؟ ما سر هذه
الرعدة التى شملت جسدى ؟ اختطاف الحسينى بن نورة ؟ ذبحه
على الكوبرى ؟ ظلت جثته سباحة فى بركة من الدم ساعات • ترك
مقتله وراءه ذبلا طويلا من الدهول • الفزع • يقولون ان عفريت
القتيل يقف فى مكان جثته • الأرواح لا تخرج الا ليلا • لو اعترضت
روح الحسينى طريقك الآن ؟ ماذا ستقول لك ؟ لا بد أنها ستسخر
منك • لماذا لا تهزأ بأهل القرية ؟ أتحاسب على شيء لم ترتكبه ؟
لم أفعل سوى السكوت • كل أهل القرية ساكتون • تركوه يموت
بلا ثمن • لكن ألسنت رجلا من هل القرية ؟ ساقرا على روحه
الفاتحة •

زحفت قدمائى • أصبح الموت شيئا متوقعا فى أى وقت •
مكان ؟ السرقة • البلطجة مسألة لا تحتاج الى استفسار أو مناقشة
أو حسم • لماذا لا يأخذ عفريت ابن نورة بثاره من اللصوص ! •
التفت نحو دارها • لماذا لم تقبل عزاء من أحده ؟ رفضت اقامة
مأتم ؟ :

— مات ابنى بدون أية استغاثة • أية فرصة لأحد كي ينقذه •
إذا كانت القرية فى حاجة الى من ينقذها فهل • • • هز
اللصوص الثقة فى نفوسنا ؟

عبرت الكوبرى • شيء من الطمأنينة يتسلل الى صدرى •
عندما أعود الى دارى سألقى بجسدى على ظهر الفرن • قبل أن
أغادر الدار كانت زوجتى تحمى العرصة • لا بد أن الفرن دافئ •
كجسدها • سأصرخ فى وجهها :

« اربطى البقرة فى الزريبة • اغلقى بابها جيدا • أحضرى برام
الأرز المعمر وطورة بيض • لم أتناول طعاما طول النهار » •

« لماذا تأخرت هكذا ؟ كنت مشغولة بسبب تأخيرك » .
الشارع خال من كل معنى للحياة ؟ كتب علينا أن نعيش في
العتمة . العذاب لفترة لا يدرى أحد كم ستطول . . ؟ ماتت القلوب ؟
كيف تنبض بالأحاسيس التي تخفق بها قلوب الأحياء ؟ كان مجيء
الليل بسمره و . . يعني غسل هموم وكآبة اليوم الطويل .

حكّت البقرة جلدها في حائط عكاشة :

— لقد سمعت ان اللصوص أشعلوا النار في زريبة صالح .

— ها هي الزريبة . . أمامك . هل ترى أثرا للحريق ؟

— لا .

— أصبحنا نردد ما نسمع دون أن نعي أو نفهم ما نقول ؟

— ولكنني . .

— ما أيسر انتشار أخبار السوء . ما أسرع تصديق أهل

القرية لتلك الأخبار .

نظرت نحو باب فاطمة . أطل في ذهني وجه صالح :

— صوت فاطمة عندي أعذب من أغنية رقيقة يحملها الى راديو
الأستاذ محمد . . قلت لها سسأدلك وأغندرك . وضعت طرف
طرحتها بين أسنانها . . قالت لو كان أبي حيا . أو كان لي أخ لأخذ
بشار أخي . . أدركت من قولها ان مهرها في كفة . . وثأر أخيها في
كفة أخرى .

تلقت حولى . لماذا بدت القرية في عيني ضيقة ؟ انكمشت ؟
أين رحابتها و . . ؟ صارت سجنًا ؟ الى متى سيظل هذا الاختناق ؟ :

خوف حواسنا يخلق التوتر . الضباب . الكتابة . تخفى
عن أعيننا حقائق الأشياء .

من صاحب هذا القول ؟ الاستاذ محمد ؟ صالح ؟ فواره ؟ ١٠٠
بنت الأكابر • حدثني أبى كثيرا عن شبابها الذى لا يشيخ • جمالها
الباهر • المحن التى تلاحقها منذ ميلاد العالم :
— من هناك ؟

صوت من هذا ؟ أحد الخفراء ؟ عاد كل واحد منهم الى دركه ؟
اننى أعلم ان أحدا منهم لم يعد يغادر داره عقب أذان العشاء • أعرف
أصوات الخفراء جميعا • أستطيع أن أميزها من بين مئات
الأصوات و ٠٠ :

— ألم تسمعى ٠٠ ؟
ماذا أقول له ؟ هذا الصوت غريب عن أذنى • لا أعرفه • لكن
لماذا طعننى بسؤاله فى تحد ؟ ما سر انقباض قلبى هكذا ؟
شدت قبضتى على الرواسة • درت حول نفسى • تطلعت الى
الوجوه الثعلبية • عيونها تبرق • تطل منها مخالب وحشية •
امتدت يد تمسك سكيننا لامعا • قطعت الرواسة •

٢

فى العيون أشواك أقسى من الدمع • الألم • الشكوى • لماذا
ظل أهل القرية ساهمين ؟ شلت كلماتى أرادتهم ؟ عطلت فيهم كل
شئ ؟ لم أنم طوال الليل • ظلمت أقلب على فراشى •
منذ يومين جلس ابنى الأكبر على المصطبة التى بجوار الباب •
راح يقرأ لصبية القرية قصة عتتر العبد الأسود الذى دافع عن دياره •
تنحج صالح :

— أصبح كل منا فاقده الاحساس بغيره تماما ؟ مادمننا مشتتين •
متفرقين • لن نستطيع إعادة ما ضاع •

مز عبد الحق كتفيه :

— سمعنا كثيرا مثل هذا الكلام •

لم يلتفت صالح لقوله :

— بدأ الأمان يتضاءل • خاصة بعد أن سرق اللصوص بقرة

بكر •

اعتدل الأستاذ محمد في جلسته :

— نستطيع أن نسترد حقوقنا بمنطق القوة •

هتف عكاشة :

— أية قوة لدينا •• ؟ مخلوف سوف يرد إلينا كل ••

— كيف يساعدنا •• ؟ لأجل سواد عيوننا ؟ جاء إلى قريتنا

لتحقيق مصالحه الشخصية •

هرش طبال القرية قفاه :

— يخيل إلى أن ندفع للصوص •• أثاوة ونسد أفواههم •

— أي رجل لديه ذرة من الكرامة والشهامة •• يقبل هذا ؟

— إذن •• نسكت •

— السكوت أقصى أنواع الموت •

تنهد عبد الحق :

— هذا قدرنا •

— لماذا لا ننظر إلى الأشياء على حقيقتها بدلا من الاستسلام

والحزن وأحكام القدر ؟

نظر طبال القرية نحو عبد الحق :

— ما رأيك ؟

— أنا مثل أهل القرية .. أول من وافق .. وآخر من عصى ..

قلب صالح كفيه :

— ما هذا الكلام يا جماعة ؟ أنا غير موافق على حكاية الاتاوة ..

— لا داعي لأن نسميها آتاوة .. نعتبرها .. هدايا ..

— هدايا .. فردة .. تمنى آتاوة .. مادام الانسان مكرها ..

على تقديدها .. كيف نقبل الهوان ؟ ذنب الذل لا يغفر .. !

تساءل عبد الحق :

— لماذا لا نتفق مع قطاع الطرق ؟

ضابت عينا محمد الفندى .. هز رأسه :

— ماذا تعنى .. بالاتفاق ؟

— نقول لهم كلمتين .. ربما تطيب خاطرهم ..

— اللصوص لا يهمهم الا أن يعيشوا بشرف قريتنا ..

— لذلك فأنتى أقترح ..

— كيف نتفق مع أناس يفرطون فى عرضهم مقابل سبيجارة ..

« ماكينه » بصلة جافة تشبثيها نفوسهم للمائة على الدوام ..

تسلل صوت مشروخ :

— نتفق معهم .. نكون حذرين ..

هتف صالح ساخرا :

— كيف نتفق معهم ؟ نذهب اليهم فى العزبة .. راكمين ؟ ..

نمد أيدينا لتصافح أيديهم الملوثة بدماء الحسينى بن نواره وأخى ..

فاطمة و .. ؟

— انهم يندورن فى أية لحظة .. ليس للمبادئ أية قيمة فى ..

سبيل تحقيق مصالحهم ..

ضرب طبال القرية فخذه بيديه :

— ما الحل ؟

ملا الغضب وجهي • سنبدا المناقشة من حيث انتهينا ؟ ننتهي
من حيث بدأنا ؟

قال الشيخ يوسف :

— نريد قرارا حاسما

أمسك عكاشة ياقة جلبابه الزفير :

— اننى اقترح تأجيل اجتماعنا • ربما اتخذنا قرارا الآن ••
ثم نندم بعد ذلك على اتخاذه •

تواثبت العيون الحائرة بين وجهي الشيخ يوسف وعكاشه •
ما هذا الذى يحدث ؟ واحد يطالب بقرار حاسم • آخر يطلب
التأجيل •• الى متى سيظل الحديث • الاجتماعات تشرق بنا
وتغرب ؟ كل يوم نتداول الراى • نوازن بين النتائج ثم •• ؟

أقبلت سيارة تتبختر كالبطة التى أجادت زوجتى تزغيطها
وتسمينها فى رمضان الماضى • هزاع زاهر نحوها • افتح بابها • اطل
وجه سامى •

وضع يده على كتفى :

— بلغنى أن المتشردين سرقوا بقرتك أمس •

— يجب ان نتوقع كل شيء ما دمنا ••

— ليس أمامنا سوى أن نصبر كما صبر أولو العزم •• اليس
كذلك يا شيخ يوسف ؟

— صبرنا •• لم يظهر للفجر شراع

— أنتم بشر •• خلقتم من طين

ماذا يعنى سامى ؟ يقدر ظروفنا ؟ يظن أننا ضعفاء ؟ الى متى
سنواجه الخطر وندفع الثمن ؟ جاء الى قريتنا ليفتح محلا لبيع التفاح
وادوات العطور والزينة ؟ يملأ جيوبه بنقودنا و . . ؟ لماذا لا يمد
اليينا يد المساعدة ؟

أخرج من جيبه ولاعة ذهبية • أشعل سيجارة غليظة بلون
الشيكلاته :

- سوف نضع حدا لكل ما يقوم به اللصوص •
- متى ؟

- عندما يجرى الوقت المناسب
- متى يأتى الوقت المناسب ؟

ابتسم زاهر :

- بعد أن تدرس احتمالات المستقبل و . .

بعد شهرين من مجيء سامى الى قريتنا • كنا نجلس أمام دار
محمد أفندى • أقبل زاهر :
- الا تعرفون سامى ؟

- كيف لا نعرفه ؟ انه متحدث بارع • يسحر العقول • لكلامه
مذاق السكر • يذيه بلسانه • يصبه فى الأذان شهدا •

لوجت نوازة بيدها فى وجه سامى :

- كيف نصبر • طاعتنا محدودة ؟

لم يلتفت الى سؤالها • وضع على عينيه نظارة شمسية

فى الصباح قابلت الأستاذ محمد :

- لماذا تبدوا عيناك حمراوين • هل • • • ؟

— لم أبك • لست أول ضحية • إذا استقر الخوف في
الصدور فلا مكان للنوم في العيون •

— أتعشم أن نصل اليوم الى قرار أو حل • • والا فستظل
المأساة في حياتنا الشيء الراكد •

زحف بصرى على جلباب زاهر البوبلين الأبيض • استقر على
حذائه الأسود اللامع •

— سامى رجل عبقرى • كلامه يفتح العقل على أشياء جديدة •
أخبرنى انه بالحوار مع قطاع الطرق • • سوف تتم كل الأمور •

أقبل مخلوف • نهض عكاشة من مكانه • أمسك بذيل جلبابه
الزفير مسح طرف المصطبة أشار لمخلوف بالجلوس • اتكا بمرقبيه
على ظهر حماره الأجرب :

— سائل وألفا :

نظر نحو صالح • • اضاف قائلا :

— لماذا أرسلت فى طلبى ؟ هات ما عندك • • أريد العودة
بسرعة • لقد أغلقت الدكان •

تقابلت عيناه بوجه سامى • لوى كل منهما عنقه • الأستاذ
محمّد يقول لنا :

— سامى ومخلوف تاجران • رغم اختلافهما الذى لا يخفى
عن العيون فإن الاثنين أفكارهما متوازية • لا يمكن التقاؤهما •
الاثنان متفقان على امتصاص خيرات قريتنا • جعل الوضع فيها
معلقا •

التفت نحو الشيخ يوسف • • منذ أيام قلت له :

— هل تصدق يا مولانا أنني تركت كتابا عند مخلوف وذهبت
الى المسجد لأصلى الظهر • عندما عدت اليه وطلبت منه الكتاب أنكر
أننى تركت لديه شيئا •

- لا أمانة لمن لا دين له .

رسمت أصابع قلمي عكاشة الحافيتين في التراب خطوطا .
عندما جاء سامى الى قريتنا سألنا الأستاذ محمد :

- ما رأيك فى سامى ؟ أليس أفضل من مخلوف النجس ؟

- لقد استبدلنا مستنقعا بمستنقع

تنهدت نواره . رمى مخلوف بنظرة مدببة :

- أعلمت بما حدث أمس ؟ سرق اللصوص بقرة بكر . لم يعد
الوضع يحتمل السكوت أليس كذلك ؟

- بلى .. ولكن التريث

التريث ؟ كان نقطة البداية نحو الانحباء . لم يبق الا أن تدوس
أقدام المتشردين كرامتنا .

هتف الأستاذ «جهد :

- اننسا ..

- انتظر

- شاخ الانتظار

كلما تحدثنا مع مخلوف فى موضوع قطاع الطرق يصفى إلينا
بأذن باردة .. يقول اصبروا . مخلوف له لؤم حارة مسدودة .
حينما طب على قريتنا كنا نبحث عن عود القش الذى يتعلق به
الفريق :

- اللصوص لديهم بنادق و ..

هتف صالح :

- ماذا تعنى بقولك هذا ؟ سنشتري منك البنادق .. جئت
لتساعدنا أم تزرع الخوف فى قلوبنا ؟
- اننى ألفت انتباهكم الى ..
- لماذا تشكك فى قدراتنا ؟ أغرقنا فى بحر من الضعف
- كنت أسدى اليكم النصيحة
هزت فواره رأسها :

- بل كنت تراوغنا .. لتكسب مزيدا من الوقت ..
و « تشفط » نقودنا .
- اننى أعدكم
- وعدتنا كثيرا . سئمتا التسويف . كل مرة تعدنا . ونقول
معك حتى باب الدار .
زفر محمد أفندى :

- الى متى سنتحمل إهانات المتشردين ؟ كل يوم ننزف دماء
جديدة . تتجدد الأحزان . تحفر قبرا فوق قبر .. وانت ولا هنا ؟
- أصبحت قريتنا حديث السامرين على مصاطب القرى .
- متى تعود مباحج الأيام الماضية ؟
فى ذيل كل عبارة تساقطت مصمصات الشفاء . صارت
الكلمات حتى الهامسة تقطر ألما .. ؟ سنتحسر على ما فات ؟ الى متى
سنعيش فى ظلال الذكريات ؟ نتشى وننسى . أوشكنا أن ننسى
أنفسنا .. ؟ كان أبى يقول .. رغم ضنك الحياة .. كانت حياتنا
كلها ألفة ومودة . الاصدقاء كانوا أخوة . أشقاء الجيران كانوا آباء
وأمهات وأخوة . الحياة يحوطها الأمان والطمأنينة .
نظرت نحو الغنم التى ترعى العشب على شاطئ التربة .
مخلوف وسامى لا يلتقيان أدنى اهتمام الى ما يجرى حولهما .

عبث صالح بعصاه بين قدميه • أشار نحو مخلوف :

— جئت الى قرينتنا بحجة مساعدتنا

— لكن الواقع دائما أكثر تعقيدا من الحقائق المجردة

ماذا يعنى مخلوف بقوله هذا ؟ لماذا تبدو اجابته مائعة ؟ :

— نريد قولاً واضحاً

— ماذا تعنى بالوضوح ؟

— لقد نفذ صبرنا اما أن تضع حداً « لبجاجة » قطاع الطرق

واما أن ترحل عن قرينتنا •

ابتسم الشيخ يوسف :

— ماذا قلت •• يا مخلوف ؟

هز سامى رأسه • نزع نظارته الشمسية عن عينيه • لمعتا •

أدرك أن الشيخ يوسف قد أغلق باب المراوغة أمام مخلوف ؟

سار سامى نحو سيارته • انشقت شفطاه عن ابتسامه • مسح

مخلوف حماره • لماذا لم ينتظر ليسمع بقية حديث صالح ؟ لماذا لم

يلتفت لسؤال الشيخ يوسف ؟ كنت أريد أن أروى له كيف سرق

الصوص بقرنى •• !

كان خالي يقول :

— عزرائيل لا يترى ليبيكى مع أهل الميت

اعترض الشيخ يوسف طريق مخلوف :

— لم تجب على سؤالى

— كيف أخرج للاقاة المتشردين دون دليل ؟ لماذا لا يأتى معى

أحد ليشهد أننى ؟

- هل مقتل بعض اللصوص ؟ علم مجيئهم الى قريتنا بعد
اليوم .. فى حاجة الى شهادة ؟
تقابلت عيناي بعينيه الزرقاوين .. هز كتفيه .. تنهد ..
همس :
- سأحاول

٣

قلب الشيخ يوسف كفيه :
- هل خرج مخلوف ليلة أمس لملاقاة قطاع الطرق ؟
هتف عبد الحق :
- نعم
هز صائح رأسه :
- من الذى أخبرك أنه فعل ؟
...
- لدى شك فى خروج مخلوف لملاقاة المتشردين .
انه يرتدى قناعا على وجهه الأحمر . لا نعرف اذا كان راضيا
أم غير موافق على قطع دابر اللصوص؟ رحم الله الحسينى بن نواره :
- هل أنتم مجانين ؟ كيف يمنع مخلوف اللصوص من السطو
على قريتنا ؟ لو فعل هذا لذبح الدجاجة التى تبيض له ذهباً .
تسللت أصابع طبال القرية تحت طربوشه :
- سمعت عكاشة مساء أمس يقول : رأيت مخلوفا ينظف
بندهيته أم روحين . لابد أنه سيخرج لملاقاة قطاع الطرق .

- هل نسينا حكاية حريق زريبة صالح ؟
 - لا أحد يبارى عكاشة في نشر الشائعات • خاصة اذا كانت
 تتصل بشجاعة مخلوف • أكيد أنه أعطاه قطعة ملبن أو سيجارة لف •
 - أخبرك عكاشة أن مخلوف كان ينظف بندقيته ؟
 - نعم • • وإذا أنكر • • سأغرس أصبعي في عينيه الوقحتين
 الأسبوع الماضي شتم عكاشة الشيخ يوسف • قبض صالح
 على كتفه هزها بعنف :
 - من الأفضل ان تحفظ لسانك • أن ترده عن الشيخ يوسف •
 لم يبق الا أن « تبوق » في مولانا ؟ لو عدت الى ذلك مرة أخرى
 سوف تنال مني ما لا يرضيك •
 - الشيخ أراجوز •
 - ماذا تقول يا نجس ؟ كيف تتناول على الرجل الذي تتطلع
 اليه القرية بكل احترام وتبجيل ؟
 انهالت الكلمات على جسد عكاشة كالطر • أحاط رأسه
 بذراعيه • تكور حول نفسه • انطلقت الضحكات •
 لمحت سحلية تزحف بين أعواد الغاب على شاطئ التربة •
 عندما تدخل محمد أفندي • خلص عكاشة من أيدي أهل القرية • •
 هتف صالح :
 - والله لولا أن يلومني عقلاء القرية لقتلت عكاشة بالبلغة
 كالبرص •
 - كيف يقول الشيخ يوسف • • ان مخلوف رجل خنزير ؟
 ألم ير جلبابه الأبيض الذي يرتديه ؟
 - من ير واجهة دكانه المزدانة • • لا يصدق انه يخفي
 بلاوى •

نهضت نواراة واقفة :

— هل تعتقدون أن مخلوف جاد في عزمه على ٠٠٠ ؟

ترامى الى الأذان صوت مسرّسج :

— كل شيء جائز ٠٠

هزّزت رأسى ٠٠ أمسى قرأت فى عين مخلوف تكذيباً لما قال .
كلما حدثه أحد عن شيء يبسط له يديه :

— كم متدفع ؟

ضرب الأستاذ محمد فخذه بيديه :

— غدا سيأتى مخلوف بالكذوبة الجديدة ٠٠ لقد جلدتكم مراراً . مخلوف وسامى يتاجران بأهال قرينتا . أين ما يرددانه عن حقوق الانسان وكرامته ؟ يقتصر عليهما هما وأقاربهما فقط ؟

عادت كلمات قبائى القرية تدوى فى أعماقى :

— مخلوف وسامى يأتیان الى قرينتا كتاجرین . يفادرائها ومعهما نقودنا . يتركان وراهما أفكارهما ٠٠٠ سخافاتهما والفرقة بين أهل القرية .

٤

امتلات القرية بالصراخ . من شقوق الأبواب والنوافذ اطلت
عيون مدعورة :

— ماذا حدث ؟

— تسلل للصوص الى القرية . سرقوا من بيت محمد أفندى راديو . طشتنا نحاسياً ودجاجتين ٠٠ سرقوا حمار أحمد عبد العال .
دعك عبد الحق صدره بيده . نظر الى الأستاذ محمد :

— ألم أقل لك .. تقدم الى اللصوص هدايا .. لم تسمع
قولى .. أ

— كرامتنا فوق كل اعتبار .

— هذا قدرنا ... اذن .

لوحث في وجهه :

— نضع أيدينا على خدودنا ونقول .. قدرنا .. ؟

— ماذا فعلت ليلة أن سرق قطاع الطرق بقرتك ؟

— كنت وحيدا .

الستقرت يد نؤارة على كتفى :

— قد يقهر المتشردون بكرا بمفرده . لكنهم لن يقدرُوا على
قهر أهل القرية .

طفا على الجرن صمت لزج ..

أقبل طبال القرية .. لاهثا :

— لقد حرق قطاع الطرق جرن جبريل . انطفأت النار في
رمية الأرض منذ دقائق .

شيء من الفضب . الألم . المرارة تتدفق في حلقى . طار
خيالي الى جرن جبريل . كان ينتظر دراس الأرض . تذريره . ملء
الزكائب بالحبوب . خرج من الحصاد بلا حصاد ؟ بماذا يطعم
لطفاله ؟ كان يعيش « بالتيلة » . ! يدبر نفسه طوال السنة من
زراعة الأرض . من أين سيسدد ديونه « المتلتلة » ؟ كثيرا ما شكى الى
من كثرة الاولاد وقلة موارده المالية .. !

تهالك طبال القرية على أحد أكوام السباخ الى متى سنتنتظر؟
لم يسجب هذا الحال أحد . لم يعد أحد يعنيه أن يسأل ؟ مل أهل

القرية الانتظار ؟ لم تعد هناك أسرار تخفى عن عيون الأطفال . على شفاههم الصامته تساؤلات أذل للصوص أعناق الرجال ؟ الى متى سنتجرع الانتظار ومرارته ؟ متى نتخلص من هذا العار . . ! :

— قلنا ان محمد أفندى رفض دفع اناوة للصوص . . أحمد عبد العال . جبريل ظلا صامتين طوال اجتماعنا . . أول أمس .

ضحك صالح :

— دفعا ثمن صمتها .

— أتضحك . . ؟

— لم لا ؟ ألا يكفي أن الوافدين كموا الأفواه ؟

— ماذا تنتظر من أناس مغلوبين . . فقدوا ارادتهم . . !

هتف نوازة :

— اذا كان المتشردون قد سلبونا الأمن والطمأنينة ، فأننا ما زلنا نملك الأمل . . لن ينضب في قلوبنا أبدا .

ابتسم طبال القرية :

— لقد حلمت أن أهل القرية قبضوا على لصين و . .

قطب الأستاذ محمد جيبته :

— صارت الأحلام حبالا نعلق عليه الأوهام والآمال ؟

— هل علمتم بما حدث ؟

حاصرت العيون المتلهفة وجه فاطمة :

— لم يذهب مخلوف لمقابلة اللصوص . . اليوم سمعت حضرة العمدة يطلب منه مغادرة القرية .

هتفت عشرات الأفواه :

— العمدة ٠٠ !

— نعم ٠٠

ابتسم صالح :

— ماذا قال مخلوف عندما ٠٠ ؟

- كاد أن يبكى لكن العمدة أمره بسرعة الرحيل عن القرية .
- شد ملامح وجهه الدموى ٠٠ أراد أن يخفي غيظه وحقيقة انفعالاته ٠٠
- ثم ترك سراى العمدة بخطوات مضطربة .

فرك محمد أفتدى يديه :

- ألم أقل لكم ٠٠ مخلوف يريد أن يلعب بنا ؟ لكن أبصاركم
- ضعفت عن الرؤيا ٠٠ بقاء اللصوص فى العزبة ارتبط بوجود
- مخلوف فى قريتنا .
- كيف ؟

— بعض قطاع الطرق أقارب سامى ومخلوف .

لماذا هن الرجال رؤوسهم ؟ فهموا ما قاله الأستاذ محمد ؟
نظر نحو اللقافة التى تحت ابط زاهر :

— ما هذا ؟

- علبة حلوة . اشتريتها من دكان سامى .
- كل شيء أصبح مصنوعا ٠٠ يباع فى علب ؟ تلتصق به
- مواصفات ٠٠ ما عدا الصدق ؟

وسد طبال القرية رأسه ذراعيه . الأسبوع الماضى قابلنى

حائقا ٠٠ صرخ فى وجه زاهر :

- سامى يأكل الأرض المعمر الفارق فى السمن البلدى . نحن
- لا نجد السمن النباتى ؟

- سيتحقق لنا ما تهفو اليه نفوسنا .
- سامى يلعب على الحبلين .
- سامى يكره أقاربه من المتشردين . يقول انهم كالكلاب
- الجربانة . الايام قادمة .. لكى .. وقد وعدكم .
- اننا لا نطلب وعدا .
- ماذا .. اذن ؟
- التنفيذ .

مطت فاطمة شفيتها :

- كيف ننتظر خيرا من مخلوف وسامى ؟ انهما يصطادان فى
- الماء العكر .. تجارتهما .. الامور المعوجة .
- انطلقت صرخة اوزة فوق أحد السطوح .
- تنهلت نواراة :

- بعد أن كان اللصوص يخطفون من دورنا البط والاوز
- والدجاج .. أصبحوا يحرقون محصولاتنا ..
- هتف زاهر :

- ما رأيكم فى حل مؤقت ؟

شلت نواراة قسبات وجهها النيل :

- الحلول الوقتية مخدرة . سنمنا انتظار الصباح الضبابى ..
- الحل فى أيدينا .. سنختار الطريق .. النهاية .
- ماذا يدور برأس نواراة ؟ لماذا تفيض كلماتها بالثقة ؟ لماذا
- نطقت بعبارتها الأخيرة على مهل وهى تنظر نحو زاهر ؟
- عندما صحبت زوجتى الى طبيب الوحدة المجمة :
- ضنغ ناشئ عن الانهاك .

- لماذا لا تكتب لها بعض الأدوية المقوية ؟
- من الأفضل أن تنبع المقاومة من داخل الجسم .



- رحل مخلوف وأقاربه عن القرية .. أغلق العمدة دكاكينهم وخماراتهم بالشمع الأحمر .
- طعن عكاشة زاهر بنظرة مساوية :
- نحن السابقون .. وأنتم اللاحقون .
- ابصق من فمك .. يا نجس .
- لا تتحدث معي بعد اليوم .. يا صبي تاجر التفاح و ..
- رنت صفعة من يد زاهر على وجه عكاشة . وضع يده على صدغه فوق الصفعة . ارتفع حاجباه . وثب كالثعبان . أطبق على عنق زاهر .
- انقسم الحاضرون الى جناحين . ارتفعت العصي . تعالت الصرخات . صار أهل القرية مجموعة كناكيت فتح لها قفصها ؟ تدخل صالح :
- يا عالم .. هل نسيتم مصيبة قطاع الطرق الثقيلة على القلوب ؟ بث مخلوف وأقاربه الوقية بيننا ؟
- مسح عكاشة خيوط العرق على وجهه بكفه الواسع :
- تتحدثون عن مخلوف وكأنه أكل أموال أبيكم . لماذا لم تذكروا سامي بسوء ؟ يريد منكم أن تركعوا .. تذهبوا الى عزبة اللصوص وتفتاهموا معهم .. !
- زُعن الشيخ يوسف :
- مخلوف وسامي يريدان إشعال الفتنة بيننا . لعن الله الشيطانين اللذين يفسدان بين الأخوة والأصدقاء .

هتف محمد أفندى :

— ألم نخجل من أنفسنا ؟ لو سأل كل واحد نفسه .. لماذا يتشاجر مع أخيه أو جاره . هل سيجد جوابا شافيا ؟ هل سيعثر على مبرر مقنع ؟ لماذا لا نوفر كل هذا .. لملاقاة اللصوص ؟

ارتفع صوت خشن :

— كلام صالح . الشيخ يوسف . الأستاذ محمد كلام صحيح . يساوى وزنه الذهب .

اقتربت من الشيخ يوسف . محمد أفندى . صالح :

— لا أحد من أهل القرية يسمح اليكم .. كل واحد منهم يريد أن « يفش » غليله فى أى انسان يقابله .

دوت صرخة استغاثة . كفت العصى عن التصادم . وقف الرجال يبحثون عن أنفاسهم اللاهثة :
— ماذا هناك ؟

— أشعل اللصوص النار فى عريشة أحمد عبد العال .

انطلق أهل القرية نحو الحريق :

— انقلدوا الماشية التى فى داخل العريشة أولا .

اقتحم صالح النار . نظرت نحو فاطمة . ما هذا الذى يرتعش فى عينيها ؟ خوف ؟ دعاء ؟ زحفت على شفتى ابتسامة .

أطل وجه صالح . سحب جاموستين وراءه . انتقل بصرى الى وجه فاطمة .. أين شحوب وجهها ؟ الارتعاشة التى كانت تملأ حلقتيها .. ؟ حلت محلها اشراقة و .. ؟

زادت الابتسامة على شفتى اتساعا ..

التقط أحمد عبد العال رواستي الجاموستين من يد صالح في
لهفة . أم عثرت على طفلها الوحيد المفقود في زحام المولد .

هوت العصي على النار . سكبت النساء البلايص المملوءة بالماء
على السنة اللهب . خمد الحريق . جلس الرجال حول العريشة .
نكسوا رؤوسهم . حل التساؤل محل الارهاق . الغضب ؟ لماذا
وضع كل واحد عصاه بين قدميه اللتين غطاها الهباب ؟ يخشى أن
تلتقى عيناه بعيني جاره ؟ يفكر فيما حدث . .

هو الشيخ يوسف رأسه :

- لا يمكن للأخوة أن يتفرقوا . قد يختلفون بعض الوقت .
لكنهم جسد واحد . سرعان ما تلتئم أجزاؤه .

عاد الصوت الخشن :

- الفاتحة لحضرة النبي . ولأهل البيت . على صفاء النفوس .
وضع محمد أفندي يديه على كتفي زاهر وعكاشة :

- الموقف يتطلب منا أن نصفي خلافاتنا الداخلية حتى لا يكون
المتشككون شوكة في ظهر القرية . لماذا لا يلتئم الجرح ؟ يجتمع
الشمس المبعثر ؟ فقد آن الأوان لكى

هتفت في لهفة :

- كيف . . ؟

- سكة أبى زيد كلها مسالك .

- ما هذا الذى . . ؟ هل . . ؟

- نعم . ما زالت لدينا القدرة على السخرية . . اليس هذا
جواب سؤالك ؟

كيف عرف سؤال قبل أن أكمله ؟ قرأ ما يدور برأسى ؟

- لماذا تركت البقرة للصوص عندما ٠٠ ؟
- عندما رأيت السكنين لامعا ٠٠ ما كان بإمكانني إلا أن ٠٠
- على العموم لو حاول المتشردون المجيء الى القرية مرة أخرى ٠٠ سيكون آخر خطوهم نحو قريتنا ٠

٦

الحيرة تلقى ظلالها على القرية ٠ تصخب في العيون الساكنة تساؤلات ٠ ماذا سيفعل قطاع الطرق بعد أن أشعلوا النار في دار نواراة الليلة ؟ ترامي الى مسامعهم تهديدها ؟ لقد توعدهم صالح والأستاذ محمد ٠ لماذا نواراة بالذات ؟

منذ قليل اقترب عبد الحق من نواراة :

- كيف تقتلع الشوكة المفروسة في قلوبنا ؟

- العيون العمياء لا تبصر الشمس ٠

كل شيء ملقى على الأرض في تراخ ٠ الكلمات تطير بأجنحة الصقور لا شيء يوقفها ؟ الكلاب تنبح ٠ تتواثب فوق السطوح بالنهار ٠ يموت نباحها اذا حل الليل ٠٠

استند عكاشة رأسه الى حائط نواراة المتهدم :

- لم تنفذ وعدك ٠٠ يا صالح ٠٠ بعد أن أعلنت ٠٠

لماذا لم يتم عبارته ؟ كلماته تفوح منها السخرية والتشفي ٠

مصمم بسفقتيه أضاف :

- كان وجود مخلوف بيننا يجلب إلينا شيئا من « الونس » ،
لقد أحال للصوص دار نواراة الى أطلال ٠

— سنعود مرة أخرى الى الحديث عن مخلوف ؟ عندما أسمع
سيرة قطران هذا .. أشعر بالقىء .. لو قدم كل واحد فى القرية
قالب طوب .. سنعيد بناء دار نواراة ..

— اننى لا أتحدث عن اعادة بناء بيت نواراة .. لكننى أتساءل ..
ماذا سنفعل مع قطاع الطرق .. وأنت لا تملك بندقية ؟

— يكفى أن أملك الارادة والشجاعة ..

— لم تجب بعد على سؤالى ..

— سوف تعرف .. ماذا سنعمل قريبا .. قريبا جدا ..

— كل مرة تناقش و ..

— بدون نقاش لا يمكن التوصل الى نتائج سليمة .. خاصة
فى الموضوعات ذات الأهمية الكبيرة ..

— ماذا تنوون ؟

— ستعلم .. عندما تعلن البندقية كلمتها ..

بندقية ؟ من أين سيحصل عليها صالح ؟

طافت عينا محمد أفندى بدار نواراة المحترقة .. عقد يديه على

صدوره :

— لقد ارتدى اللصوص رداء التحدى ..

شلت نواراة قامتها .. سبهم على وشك الانطلاق :

— أيقظن الوافدون عندما يشعلون النار فى دارى أننى

سانحنى ؟

هزت رأسها بسطت يدها .. قبضتها .. متوعدة :

— طيب .. طيب يا أولاد الملاعين .. لو كان عمركم أردب

« ربه » صبركم على ..

لماذا تحدث محمد أفندي • صالح • نواراة بثقة كبيرة ؟ اتخذوا
قراراً ؟ ألا يحق لنا أن نعرف •• ؟ ألسنا من أهل القرية ؟ يخشون
أن ينتشر الخبر ؟ يصل إلى آذان قطاع الطرق ؟

تطلعت إلى السماء • لو فلت القمر من قبضة السحب الماكنة ؟
سيفسد نوره الحليبي كل شيء •• حتى الأحزان ؟

تذكرت حواراً دار بيني وبين نواراة عقب سرقة بقرتي :

- أصبح الخلاص متعذراً ؟

- لن نتخلى عن صلابتنا مهما اعترضتنا الصعاب • يريد
للصوص اذلال قرية لم تعرف الدل ؟

- إلى متى سنصمت ؟

- أرجو ألا يتسلل اليأس إلى صدرك • قد يتحول الصمت
في لحظة إلى صخب عنيف •

- متى ؟

- علمتني الحياة أن أصبر • أصبر طويلاً • ألا أفقد الأمل •
مال الأستاذ محمد على أذن جبريل • لماذا هز رأسه ؟ يعلن
عن فهمه و •• ؟ ماذا قال له ؟

اقتربت من نواراة :

- ما هذه الدموع •• أتبكين ؟

ابتسمت :

- ليست الدموع عنوان الضعف •

ضعف ؟ من قال هذا ؟ تتوالى عليك المصائب • كانت عظمتك
أنك استطعت أن ترتفعي فوق كل الكوارث •• !

كنت أقرأ سيرة كفاح عنتر • سرت في عروقي الحرارة والحماس
بعد صفحات قليلة • ارتفع صياح أهل القرية في الجرن • التقطت
العصا :

— ماذا حدث ؟

— أخبرنا قباني القرية أن الوافدين وضعوا أيديهم على أرضنا
المجاورة لزمام العزبة • قتلوا ابن الشيخ يوسف الأوسط عندما
رفض أن يترك الأرض لهم •

هبط صالِح من فوق كوم السباح • أدركه صوت مشرّوخ :

— عل أي شيء استقر رأيكم ؟

— لن ندفع اتاوة • أرضنا لابد أن ترجع •

— وإذا لم يردوا إلينا أرضنا و • • ؟

— سنرحب بالموت ترخيينا بالحياة •

— لماذا تعني ؟

— الأمر لا يحتاج إلى شرح • سوف نفاجئ قطاع الطرق و • •

— كيف ؟

— نضربهم بسلاحهم • فمن أراد أن • • فليأت معنا • • الآن • •

ومن لم يأت فعليه أن يذهب إلى داره • أتريدون أكثر من الدم إشارة
فوق الأرض ؟ سكين اللصوص ساخنة حمراء • • ؟

ماذا يعني صالِح بقوله هذا ؟ أراد أن يعرف حقيقة أنفسنا ؟

أراد أن يعرى كل متخاذل في القرية ؟

نار الغضب تلعب في أغوار العيون • انطلق من الأنواء زفير
يطالب بالثار من المتشردين • اجتاحت الصدور أحقاد ضارية ؟ يتمنون

أن يتمكنوا من رقاب اللصوص ليكسروها • يحطموا رؤوسهم •
يدوسوها بالأقدام • • أخيرا أدرك أهل القرية أن الحياة لم تعد
لها معنى أمام « رذالة » قطاع الطرق • • !

تقدم صالح • الأستاذ محمد • نواراة السيل الهادر • شددت
يدى على العصا • صارت جزءا منها ؟ ماذا ستفعل بندقية نواراة
والعصى والفئوس . أمام بنادق الوافدين ؟ لو باع لنا مخلوف ست
بنادق • أربع بنادق ؟ ماذا سيحدث لو فر أهل القرية أمام طلقات
رصاصة اللصوص ؟ يأتون • • يحرقون دورنا • • الذى يدخل
« عركة » يضع فى اعتباره • • يضرب يضرب •

حبات مسبحة الشيخ يوسف تتساقط بين سبابته وابهامه
يبتهل الى الله أن • • ؟
وقفت النساء • الفتيات • الأطفال فوق الأسطح • فى عيونهم
دعاء • على وجوههم ظلال أمل • • لو تحقق ؟

اختنق الشارع بالرجال • انتهز زاهر فرصة اقترابنا من
داره • انسل من الباب • تلفت عكاشة حوله • أسرع الى مقهى
المحلة •

اقتربنا من الكوبرى • لماذا تشعبت روافد الطوفان ؟ صار
قناة صغيرة فوق الكوبرى ؟ عاد الخوف الى صدرى • • عارما •

هتف محمد أفئضى :

- كنت أتوقع هذا •
- وما العمل ؟
- لن نتراجع •
- لكن عدنا قليل •
- ولو • • يكفى أن أكثرنا لهم أرض ركبها قطاع الطرق •

— هل سنوفق ؟

— لا تتمجل الأمور •

الظلام يبتلع كل شيء • صمت الحقول • شجوب وجهي •
ارتعاشة جسدي • ألا يخاف الذين معي مثلما أخاف ؟ لكن خطواتهم
توحى بعدم الاكتراث •

التفت نحو نواة :

— السبت خائفة ؟

قبضت على بندقيتها :

— لم تخطر هذه الكلمة على ذهني •

أحس بالصدق في كلماتها • ليست هذه أول مرة تخرج للملاقاة
قطاع الطرق • لكن لماذا تأخر جبريل ؟ ألا يعلم أن هناك رجالا
ينتظرونه ؟ مصيرنا متوقف على مقدمه • حياطنا محسوبة عليه
بالدقائق والثواني • لو تأخر أكثر من هذا •• ؟ ستصاب ترتيباتنا
بالخلل •• !

تطلعت إلى السماء • النجوم تلمع على صدرها الناعم • بعد
قليل سيبزغ القمر • وثب إلى رأسي سؤال • ماذا يكون موقفنا
لو جاء اللصوص الآن و •• ؟

ربت نواة على ظهري • نظرت إليها • ابتسمت مشجعة ؟
قرأت الأفكار التي جالت بخاطري ؟ قبل ذلك أجاب محمد أفندي على
سؤال لم ينطق به لساني • الصدور يملأها الدخان • الأنوف
تزكمها رائحة كريهة • كل انسان أتحدث معه أجده أقرب إلى أعماقي
•• مني ؟ يتحمس مشاعري ؟ يدرك ما في صدري ؟ دخلنا أعماق
بعضنا عقب الصببية التي حلت بنا •• دون أن نعلم •• !

أقبل جبريل يحمل بندقية • التقطها صالح • قلبها في يده
قدم إليه عصا • تقهر الخوف في صدري •

اقتربنا من توتة صالح • زحفنا بين القنوات • همست
نواره :

— ما رأيكم لو توارينا خلف هذه الساقية ؟
طقت صورة بقرتي في ذهني • آخر مرة كانت تجر هذه
الساقية • لو أحاط اللصوص بها ؟ • لكن يأتون الى القرية • على
بعد خطوات من داري و • • يسحبونها من يدي • •
وضع صالح مقذوفين في حوصلة البندقية • وسدت نواره
ماسورة بندقيتها مدار الساقية • صوبت فوهتها صوب الطريق
المؤدي الى العزبة •

رفرف قلبي بين الضلوع • ضاع الخوف ؟ ذاب بين الأجساد
المتلاصقة ؟ تبخر عندما ملأت أنفاس الزرع • الأرض صدورتنا !
همس الأستاذ مجهد :

— نريد أن نقسم أنفسنا الى مجموعتين أو ثلاث • لنلتف •
نفاجي المتشردين •
هتف طبال القرية :

— ماذا نفعل اذا لم يأت قطاع الطرق الليلة ؟
تابط صالح بندقيته • وهو في طريقه الى اشجار الكافور
المزروعة على الطريق :

— اذا لم يسيطوا على قريتنا الليلة فسوف يهاجمون قرية
أخرى •

أطل القمر الدامي من جوف الأرض • لو أخذ صالح بثأر
أخي فاطمة ؟ • كل آماله أن يتزوجها • هل ستتحقق أحلامه • •
زحف القمر على صدر السماء • الى متى سننتظر ؟ لماذا لم
يأت اللصوص ؟ قرروا عدم مغادرة العزبة الليلة ؟ الليل مثقوب

القاع • يطول • يمتد • تحول الى دهر ؟ فاض صبرنا • ملأ الحقد
اعماقنا •

وضعت نواردة يدها على ذراعي • احتبست الأنفاس في
صدورنا • اتسعت العيون • لمحت سيجارتين مشتعلتين تلمعان كعيني
ذئب •

همس الشيخ يوسف :

— ما هم قادمون .. يبدو أنهم عشرة رجال •

غرس الأستاذ محمد بصره بين أشجار الكافور :

— بل ثلاثة عشر رجلا • ابقوا حيث أنتم على أهبة الاستعداد

مالت نواردة على بندقيتها :

— سأطلق النار عندما يطلق صالح أول مقدوف من بندقيته •

أسرع أحمد عبد العال نحو صالح • تدفقت رخات الرصاص •
ابتلعت صرخات الألم • قبض طبال القرية على كتفه • دار حول
نفسه • سقط على مدار الساقية • راح يتلوى أمسك جبريل فخذه •
أخذ يحجل • سقط على مقربة منى •

تراجع قطاع انطرق • هتف صالح :

— انهم يهربون نحو العزبة •

اندفعنا وراءهم • وقع بصرى على جثتي رجلين • التفتت
بندقية أحدهما • أخذ الأستاذ محمد الثانية • وثب صالح على رجل
ثالث كان يعوى كالكلب •

نظر صالح نحو أرض فاطمة • ابتسم • سيقدم هذا الرجل
الجريح .. مهرا لها ؟

ماذا سيفعل أهل العزبة عندما تصل اليهم أنباء ما حدث
الليلة ؟ سيقبلون هذه « العلقة » المباحة .. دون أن يحركوا
ساكننا ؟

أسندت ظهري الى سور الكوبرى الحديدى - النور يتلألا فى
 سماء القرية • يعانق الغناء والأغاريذ ؟ رميت بصرى نحو العزبة •
 الظلام يكفنها • ينطلق من جوفها نواح وعويل • طوت ليلة حزينة ؟
 ما حدث أمس أشفى من نفسى غليلا • • لأول مرة أنعم بالنوم
 والاطمئنان • •

أحس برغبة ملحة فى أن أضحك كثيرا • أريد أن أبتلع مرارة
 السنوات الطويلة الماضية • •

دوى طلق نارى • وصل صالح الى دار فاطمة ؟ سيحملها أمامه
 على حصانه الى بيته ؟ عندما كان ابنى الصغير يسمح للصمص
 يطلقون الرصاص فى شوارع القرية • • يسألنى :

— من الذى سيتزوج ؟

أسرعت نحو دار العروس • الضوء يتدفق من النوافذ المفتوحة •
 حينما كان يحل الظلام • كنا نفلق الأبواب و • • من ينام لا يملك
 أن يفتح عينيه على ميلاد يوم جديد • • أما اليوم • • • !

اندفع الأطفال الى الشوارع • يلعبون • نفضوا عنهم خوف •
 كآبة أعوام مضت • حرموا فيها من اللهو واللعب • • !

واجهت دار فاطمة « تلمع » بالأنوار الملونة • أنغام شجية
 تنطلق من صحن الدار • بعد أن جفت الأغنيات على الشفاة • • ؟
 أخيرا تحقق حلم صالح • • ! :

— طبل • • زمر من أجل ماذا ؟ قتل اثنين من قطاع الطرق و • • ؟
 ماذا كانت ستفعل القرية لو حرقتم العزبة • « طربقتم » دورها على
 رعوس المتشردين ؟

نظرت خلفي • وجلت عكاشة • على شفثيه ابتسامة باهية •
تذكرت القرش الذي وجدته ابنتي فوق كوم السبائح • • كان
بلا معالم •

ماذا يقصد عكاشة بسؤاله هذا ؟ هل ؟ • لا • لا به أنه
لا يعنى ؟ • لم لا ؟ • منذ قليل قابلني أحمد عبد العال :

- أقلقني حديث مفترى •

- أى حديث ؟

- حديث كاذب • أخشى أن يكون قد ذاع بين أهل القرية •

- ما هو ؟

- كلام عكاشة •

اندفعت يدي نحو كتفه • دانت الابتسامة على شفثيه :

- لماذا هربت الى مقهى المحطة • لم تأت معنا أمس ؟

خلص يدي من جلبابه الزفير :

- منذ بادى الأمر • رفضت ما أردتم القيام به •

- تريد أن توصلنا برفضك الى حافة الفوضوية ؟ •

لوى عكاشة عنقه • اقتربت من الأستاذ محمد :

- انهم يقولون •

- من ؟

- بعض أهل القرية •

- دعهم يقولون • لا تصغ اليهم •

نظر نحو عكاشة :

– نشط محترفو الشكوك .

هتف عبد الحق :

– ربما كان عكاشة حسن النية .

رفع محمد أفندي حاجيه .. ساخرا :

– انما الأعمال بالنيات .

– بل انى أقصد كل كلمة نطق بها لسانى وسوف ..

توقف الأستاذ محمد . طبقت يداى على عنق عكاشة :

– فى بادىء الأمر أخذت كلامك على محمل حسن .. أما الآن ..

إذا نطقت بكلمة أخرى فى هذا الموضوع .. سوف « أرقع » صدأك ..
أسامع ؟

ارتفع الصياح . التصفيق . الغناء . نظرات خلفى . رأيت
صالح راكبا حصانا أبيض .

٩

نهض أحمد عبد العال واقفا :

– السكوت على ما يردده عكاشة .. أمر خطير . ماذا يبغى

من وراء التقليل من شأن ما قمنا به ليلة لقائنا بقطاع الطرق ؟ ..

ابتسم محمد أفندى :

– يردد ما يقوله مخلوف

أول أمس قابلى عكاشة :

– أخبرنى مخلوف أنه يكن لقريتنا كل حب

– متى ولد هذا الحب ؟ بعد أن ضربناه « شلوت » طردناه من

القرية ؟ اننا نفضل عودة اللصوص ومهاجمتهم قريتنا على ألا يرجع

مخلوف اليها • منذ أن تركها اختفت العفونة • تسلمت الى الأنوف
رائحة الزرع •• عبير الخضرة •

- السلام عليكم

- عليكم السلام

رشق الشيخ يوسف زاهر بنظرة جانبية :

- لماذا انطلقت الى دارك عندما خرجنا للقاءة المتشردين ؟

- أعلنت من قبل عن رأيي • ليس العنف الوسيلة التي ••

جلس محمد اخندي على المصطبة :

- تريد أن تعود بنا الى دائرة الهوان المباح ؟

- كنت أتمنى أن تصلوا مع سامي الى ••

- بالأمنيات يحيا الانسان • ها • ها • ها

انداحت الضحكات

نظرت الى دكاكين مخلوف المغلقة بالشمع الأحمر :

- تريد أن تقيم لنا مصنعا ••

- لا • أنتم لا تعرفون الا المحراث • الفأس • تجيدون الزراعة

اسند الأستاذ محمد ظهره الى الحائط • دائما يقول :

- مخلوف • سامي يحاولان أن يدخلوا في روعنا أننا غير

قادرين على استيعاب فن الصناعة • يريدان أن يسرقا محصولاتنا •

ليصنعاها في مصانعهما • ثم يبيعاها لنا بالشئ الفلاني • المصانع

في قريتنا سلم يوصلنا الى قلب الحضارة •

أقبلت سيارة أمامي تتهدى •• سفينة في نهر • زحفت على

شفتي ابتسامة • منذ أن نال اللصوص « العلقة » فزع سامي •

أصبحت سيارته بندوقية •• بين القرية والعزبة • أين كان كل

ذلك ؟ أيام زمان ••

صعد عكاشة فوق أحد اكوام السباح :

- قبل ذلك أعلنت أن سامى يريد أن نركع أمام المتشردين .
ها هو اليوم يطلب منا الجلوس معهم لكى يساومونا . من منكم ينكر
أن سيارة سامى تتردد بين القرية والعزبة مرات كل يوم ؟

- لا أحد .

- هذا كلام معقول .

- لماذا ؟ كيف نقبل أن نحنى رؤوسنا ؟

ماذا حدث ؟ زرعت كلمات عكاشة في صدر بعض أهل القرية
القلق و . . ؟ :

- حكاية ليلة السبت الماضى . . كانت تمثيلية . بدأت عندما
خشى سامى على مصالحه التى هدها وجود مخلوف فى القرية .
فقام العمدة بطرده .

زعم صالح :

- يريد مخلوف أن يأخذ كل شيء ولا يعطى شيئاً .
- مجرد وعود كاذبة . سخافات . أفكار شيطانية .
- انه أفضل ممن يسعون الى اهدار كرامتنا .

انطلق صوت خشن :

- ما هذا الذى تقوله . . يا عكاشة ؟

- اننى أقول ما يدور بنفسى .

- أى نفس ؟

- التى تريد أن تكشف لأهل القرية الحقيقة . هرب قطاع
الطرق أمام الرجال . . هيه ؟ لماذا لم يطاردوهم . . هيه ؟ لماذا لم

ينهبوا الى العزبة • أشعلوا النار فى دورها •• هيه ؟ لو كان
الصوص مكان الرجال •• هل كانوا سيتركون قريتنا الا اذا جعلوا
دورها خرابا •• هيه •• ؛

..... -

لماذا سكنت صاحب الصوت الخشن ؟ من أين لعكاشة هذه
البلاغة ؟ أكيد مخلوف لقنه ماذا يقول • كيف يرد علينا ؟ مخلوف
« مولع » ، آكان يريد أن يتخذ قريتنا كوبرى لبقية القرى المجاورة •
يضع يده على مزارع المركز وخيراته •• !

لكن لماذا قطب محمد أفندى جبينه •• ؟ زعقت فى وجه
عكاشة :

- كنا نتمنى ألا تهرب •• تأتى معنا ليلة أن واجهنا اللصوص •
نرى شطارتك •• هيه ••
تملقت بشفتى الأستاذ محمد ابتسامة :

- اننى أعرف الشائعات المفترضة التى يرددها عكاشة ••
لا تلقى التفاتا اليه ••
هز عكاشة رأسه :

- اتفق سامى مع بعض الرجال على أن يفاجئوا اللصوص •
يفروا أمامهم •• لكى يتدخل بعد ذلك •• يتظاهر أن الحل فى يده
وحده •• تقبلون حلا وسطا •• يبدو الفضل فيه لسامى •• نحن
نركع أمام الوافدين •

فى الصباح كنت على وشك أن اتشاجر مع عكاشة :

- صرت بوقا لمخلوف ؟ دعك من كل الأساليب التى تتبعها •
كلها تنويج على نحن واحد يعزفه مخلوف •
- بدلا من أن تشكروا الرجل الذى أراد أن « يمدنكم » ••
تسلخوه بالسنتكم ؟

- « يمدنا » بجرار بدلا من المحراث ؟ طلبية رى بدلا من

الساقية ؟ طئنا أنه سيجعل من فلاحى القرية أفندية ٩٠٠
استيقظت التعليقات :

- صحيح ٠٠ لماذا اهتم سامى بالموضوع هذه الأيام ٠٠
بالذات ؟

- يريد أن يصبح الكل فى الكل .

- أرضنا لا تقبل مساومة .

قبضت على ذراع الأستاذ محمد :

- تعليقات البعض شئ ٠ ما فى صدورنا شئ آخر .

رأسى يدور ٠ الوجوه ساكنة ٠ لولا معرفتى للحقيقة لما تملكى
الضيق ، كلمات عكاشة أثار دخان الشكوك فى صدور بعض
الرجال ٩٠٠ :

- مخلوف على استعداد أن يبيع لنا البنادق ٠ نسترد أرضنا
دون أن نخنى رقابنا .

قطاع الطرق لا يعرفون الا كلمة واحدة ٠٠ الدم ٠٠ لا يخافون
الا طريق البندقية ٠٠ كلام مخلوف عن استرداد الأرض ٠٠ الحرية
وكرامة الإنسان و ٠٠ كواجهة دكانه الزجاجية ٠ مملوءة بأشياء
براقة ٠ مملوءة ٠ فى الداخل زجاجات الخمر ٠ العفن و ٠٠
ارتفعت عبارات التذمر ٠ همسات الاستنكار :

- كرامتنا فزق كل اعتبار .

- أخذ اللصوص أرضنا بالقوة ٠ لن ترددها اليينا ٠٠
الا البندقية .

نظر صالح نحو الشيخ يوسف :

- زاد كلام هذا النجس الأمر غموضا و ٠٠

- لن تغير الكلمات من عزمنا .

شق محمد أفندي طريقه بين الأجساد . صعد فوق المصطبة :
- لولا أن تسلل عكاشة الى مقهى المحطة . حرب الكثير من الرجال
لأدرك الجميع أن « الحركة » كانت بيننا وبين اللصوص شرمة .
ليست مسرحية . خرجنا من القرية نحمل قلوبنا على أيدينا . جرح
جبريل . طبال القرية . هو راقد الآن في مستشفى الوحدة
المجعة . قتلنا رجلين من اللصوص و ..

قاطعه عكاشة :

- ماذا حققت « الحركة » التي تزعمون أنكم حققت بها عملا
بطوليا ؟

- يبدأ يوم جديد بومضة . يكفي أننا أعدنا الثقة الى
أنفسنا و ..

- لماذا لم تستردوا كل الأرض التي وضع الوافدون أيديهم
عليها ؟

- لم يكن معنا سوى بندقيتين .. قليل من الطلقات .

- زعتم أن مخلوف ..

- اذا كان سامي جادا .. وتوصل مع اللصوص الى حل
مقبول .. أهلا وسهلا .

- لماذا لا تبحثون عن طريق آخر ؟

- لقد جربنا كل الطرق .

لوحته بعض الأيلى :

- نريد أن نقف أمام الجميع مرفوعي الرأس .

هتف عكاشة متسانلا :

- قبل ذلك رفضنا المساومة و .. كيف نقبل اليوم دعوة .

قطاع الطرق للحوار في جلسات خاصة و .. ؟

- اذا لم يتحقق لنا كل ما نريد دون تفريط في شبر من

أرضنا أو تبس كرامتنا فإننا نملك حق الرفض . نعرف الطريق

لكي . . .

— وقوفكم بجانب سامي سوف . . .

— نقف بجوار الشيطان لو وعدنا بانقاذ السفينة .

١١

ارتبطت العيون بنهاية الطريق . لماذا لم يظهر أحد . . ؟
خدعنا أهل العزبة ؟ ضحكوا على ذقوننا ؟ أخبرنا سامي أنه سيأتي
معهم . يحضرون بقرتي . حمار أحمد عبد العال . راديو الأستاذ
محمد و . . و . . و . . بعد العصر . لم تعد سوى ساعة وتغرب
الشمس . . !

نهش القلق قلبي . استيقظ الهمس . نظرت نحو عبد الحق
. . قلب كفيه . . تنهد . .

هب أحمد عبد العال واقفا :

— ها هي سيارة سامي .

هلل البعض :

— انهم قادمون .

اندفعت نحو بقرتي . خارت . فرحة بعودتها ؟ مازالت تعرفني؟
اشتريتها حجلة صغيرة . رحت أقلم اليها البرسيم . الدريس .
الكسب . . لم تسع الدنيا فرحتي عندما كبرت . . وعشرت . . !
تكاثرت الهمسات . صارت أصواتا . أصبحت ضجيجا . راح
سامي يوزع ابتساماته على أهل القرية . لاعب في سيرك أدى
« نمرته » باتقان . . ينتظر . . ؟ نصفق له ؟ نهتف بحياته . .

سار نحو رجال العزبة . زعق زاهر :

— ألم أقل لكم ؟ لن تبقى الأشياء على ما هي عليه مادام سامي
. . . بيننا

أشعل ولاعته الذهبية :

— من كان يصدق أن أهل العزبة ... ؟

ابتسم زاهر :

— ما كان مستحيلا أصبح واقعا

عقب عودة رجال القرية من العزبة .. وقف سامي فوق إحدى

المصاطب :

— سوف تنعم القرية بالأمن والأمان • لن ينشب حريق •

لن نسمع صراخا •

تجسست يداى المنتشيتان وجه بقرتى • طافتا برقبتها •

تسمرتا على قرنيها المقصوصتين • أين ذهبنا ؟ لماذا قصهنا رجال

العزبة ؟ :

— مبروك .. يا بكر

من الذى قال ان الحيوان لا يتكلم ؟ لا داعى لأن ينطق لسانه ..

تكفى عيناه • ترقص فيهما الفرحة • تطلب منى ألا أفرط فيها بعد

ذلك ؟ • من قال لك أنني أسلمتك لأهل العزبة طوعا ؟ • ألا

تعلمين أنهم أحاطوا بى فى الظلام • قطعوا رواستك الملفوفة حول

يدى .. بالسكين ... !

جرت يدى على ضرعها • لماذا يبدو ساخنا هكذا ؟ ما هذا ؟

آثار دماء ؟ ألهب أهل العزبة الضرع .. ؟ استنزفوا لبنه ... ؟ :

— ألف مبروك ... يا بكر

أشعل سامي سيجارته الفاخرة • قدم غلبته الفضية نحو رجال

العزبة • التقط كل واحد منهم سيجارة •

طلعت نواراة الوجوه الحربائية بنظرات شوكية • أمس قالت لى :

- سامي يلعب دورا غامضا .

- كيف ؟

- يخشى أن ينال مصير مخلوف .. تهدد مصالحه في
القرية .

ركب أحمد عبد العال حماره . هز رجله . انطلق نحو
القرية . قلب الأستاذ محمد الراديو في يده .. نظر نحو رجال
العزبة . ابتسم أحدهم . هرش قفاه :

- انه يعمل .. لكن « حجارته » فارغة .

ارتفع صوت مرسع :

- احمد الله .. يا محمد أفندى .. لقد عاد الراديو من فم
الحوت .

تقدم سامي نحو الشيخ يوسف . وبث على كتفه :

- تستطيع أنت ومن ركب أهل العزبة أرضهم .. أن تضعوا
أيديكم عليها ثانية .. الآن .

هتف زاهر بحياة سامي . ردد بعض رجال القرية هتافاته .

وضع عكاشة يده في خاصرته :

- عادت بقرة بكر . راديو الأستاذ محمد و .. لكن هل
عاد الحسيني بن نواره . وأخو فاطمة . ابن الشيخ يوسف
الأوسط ... ؟

من أين جاء عكاشة ؟ لم يطلب أحد منه الحضور . كلماته
تطفح جقدا . يريد أن يشعل الشك والحقد والخوف في صدور أهل
القرية .. ؟ :

- لماذا لا تتكلم .. يا بكر ؟ اكتسبت كل شيء .. فقلت
لسانك ؟

- أنا فقدت لساني .. يا قليل الحياء ؟ هل ضايقتك رجوع
بقرتي ؟ أنسيت حكاية ابتنتك ؟

سحق سامى سيجارته تحت حذائه اللامع . سار مع رجال
العزبة نحو سيارته . حرك يده مودعا .
انطلقت السيارة نحو العزبة . لوح عبد الحق فى وجه
عكاشة :

- ما هذا الذى نطق به لسانك ؟ كدت أن ...
- كم عزيز غاب عن قرينتنا عقب شجارنا مع الوافدين ؟ كم
بيتنا التهمته النار ؟ كم ؟ كم ؟

قاطعہ صاحب الصوت المرسع :

- ضاع الكثير من أهل قرينتنا أثناء شجارنا مع أهل العزبة
.. لماذا لا نجرب الصلح معهم ؟ نريد أن نعيش ما تبقى لنا من
الحياة مستقرين .

- ألم يمر أحد على المقابر ؟ لم تحك له عشرات قصص غدر
ارتكبها اللصوص ؟ أكلت الديعان الذكريات ... الموجهة ؟ ..
- عفا الله عما سلف .

- الشجار .. القتل فى دماء الوافدين .

كان وجه الحسينى بن نواره يسبح فى بركة من الدماء فوق
الكوبرى . ألقى مضاجعى أياها . كنت أتقلب على فراشى محبوما .
كدت أن أفقد عقلى .

زيجرت نواره :

- كيف نعفر .. كيف ننسى ! ما زال على كل حائط فى
قرينتنا بصمات دم وثار .

هتف زاهر :

- تسخل سامى فى الوقت المناسب • حقق نتائج مرضية
مشجعة •

زعى عكاشة :

- كان أبأؤنا يكرهون الغرباء • لماذا وتقتم بسامى ؟
- لا تنس أن سامى قد قام ...
- لعبة خطيرة • غير مأمونة العواقب • مفامرة •

تطايير سؤال خشن :

- ماذا تعنى • بلعبة • مفامرة • يا عكاشة ؟
- جرت اللعبة بسرعة • رصاصة صوبت الى الضلوع •
فى الصباح وقف زاهر وسط سور بشرى :
- لماذا لا تكونوا مرتين • • أهل العزبة سوف يقدمون الينا
الكثير •

ماذا كان يعنى زاهر بالمرونة ؟ تتنازل لأهل العزبة على كل
شئ • لا نحصل على شئ من حقوقنا • !
خوف مبهم يرجف كيانى • علم عكاشة • شيئاً جديداً •
يخفيه عنا ؟ لو ذهبنا مع الأستاذ محمد وعبد الحق وزاهر الى
العزبة يوم أن • • •

العيون الضيقة تتلوى فيها الحيرة :

- ماذا سنقدم لقطاع الطرق مقابل • • عودة بقرة بكر
المقصودة القرنين الملتهبة الضرع وأرض الشيخ يوسف و • • ؟
- هل سيأتى اللصوص الى قرينتنا • • حقاً ؟
كلمات عكاشة فتحت باب التساؤل الحائر ؟

هتف محمد أفندي :

- كلام عكاشة مجرد نقيق ضفدعة في ترعة جف ماؤها .
نظرت نحو نواره . لماذا تقف صامتة ؟ لماذا لم تقبل نحوي ؟
تقول لي : مبروك .. ! أثار سؤال عكاشة ذكرى مقتل ابنها .. ؟
عقب عودة رجال قريننا من العزبة بصحبة سامي .. وقفت
نواره .. شجرة كازورين :
- انني لا أعترض على أن تعود الأرض الى أصحابها .. ترجع
بقرة بكر اليه .. و .. و .. لكنني لا أوافق على مجيء اللصوص
الى القرية .
مخلب حائق يطل من عيني زاهر . اندفع نحو عكاشة :
- صرت لسان مخلوف ؟

لمسكت بلزاع زاهر :

- دع عكاشة يعبر عن رأيه .
- اهذا رأى عكاشة .. أم فحيح مخلوف ؟
أول أمس عندما كنت عائدا من المسجد أحسست بخطوات
تلاحقني . التفت ورائي . وجلت عكاشة :
- سامي يسعى لخداع أهل القرية . لو قبلت شروط قطاع
الطرق خدعكم سامي .. مرغ أنوف رجال القرية في التراب . لو كان
مخلوف بيننا الآن ؟ لحفظ ماء وجوهنا . قدم إلينا البنادق و ..
- ماذا فعل سيدك مخلوف طوال السنوات التي قضأها
في القرية .. ؟ اندفعنا ورائه .. توهينا .. ظننا أن في يده
الخلاص .. الاخلاص .. تشبثنا بأذياله . رفضنا أن نرى ندالته
وخيانته ماذا كانت النتيجة ... ؟

- علم مخلوف أفضل من ..

- لا علم بلا إيمان .

تضخم الصخب . لماذا اتسعت دوامة الاستنكار ضد نزاهة .
سامي ؟ عاد عكاشة وألقى بحجر في بحر الشكوك .. !

١٢

أطلقت زوجتي زغرودة . ذابت في خوار البقرة . تقدمت
نحو صحن الدار . دفعت باب الزريبة برأسها . ما زالت تعرف
الطريق إليها ؟ ألقت زوجتي أمامها حزمة برسيم . غدا سأحضر
الطبيب البيطري ليفحص ضرعها الملتهب . الأولاد يدورون حولها .
لم يصدقوا عيونهم ؟ . يتأكدوا من عودتها .. ؟ عندما أخبرني
محمد أفندي أن وضع أيدينا في أيدي أهل العزبة سوف يعيد
الي بقرتي و .. :

- ما رأيك ... يا بكر ؟

- الرأي .. رأيكم .

ظل ذلك الحديث المتفائل يدغدغ قلبي .. لكن كلام عكاشة
الليلة . تساؤلات أهل القرية الحائرة . نظرات نواراة الجريحة
.. جعلت الفار يلعب في عبي . شيء من الخوف يوخز صدري ..
تماما كما أحسست به ليلة عودتي من الفيط أجر بقرتي و ... !

اشعلت اللبنة نورة عشرة .. ملا وجه نواراة عيني :

- قطاع الطرق وسامي مصالحهم مشتركة .. انني لا أثق
في نوايا سامي .

- شكوكك أبلغ اثبات .

وضعت زوجتي الطبلية في الصالة • تصاعد بخار الطعام •
فركت يديها :

– الجو بارد •

– امتلأت الدار دفئا بعودة بقرتي •

تحلق الأولاد حول الطبلية :

– غدا عندما يعرف الذين صفقوا لذهاب بعض رجال قريتنا

العزبة •• الحقيقة •• تفاصيل اللعبة •• سوف يلعنون سامي و ••

– يا عكاشة أنت تريده جنازة وتشيع فيها لطما • لماذا تلقى

طلالا وشكوكا حول ما حققه رجال القرية مع أهل العزبة ؟

– فقدنا احترام أهل القرى المجاورة •

– يكفي أن •••

– لا •• حتى لم تكسب احترام أنفسنا •

لنم الى ابني الاكبر ملقعة :

– لماذا لا تأكل •• يا أبي ؟

هتف ابني الأوسط :

– لماذا تبلىو حزينا ؟

تساءلت زوجتي :

– ألم تعد إلينا بقرتنا ••• ؟ لماذا أنت شارد ؟

عاد وجه نواره يطل من اللبنة ثمرة عشرة :

– ماذا ستفعل القرية عندما تسقط الأقنعة عن وجه سامي •

وقطاع الطرق ؟

امتلات الصالة برائحة عفنة • من أين أقبلت هذه العفونة ؟

امتد بصرى عبر الباب المفتوح • وقعت عيناي على كلب ينبش
كوم السباد القائم فى الجرن • قفزت من مكانى • دفعت الباب
بقدمى • حملت زوجتى اللبنة الصاروخ فى يدها :

— ألم تر أن مشاعرك حيال عودة بقرتى أكثر برودة من هذا
المساء • • يا عكاشة ؟

— •••••

بعد أن أعلن عكاشة أنه رجل « سبور » • ارتدت ابنته
بنطلونا • • تكاثر شباب القرية حولها • • قطعة عسلية حط عليها
الذباب • • انتفخت بطنها كالبالون :

— كيف أدارى الفضيحة ؟

— لن تفلح المدارة • • ولعلك الآن قد أدركت أن أفكار
مخلوف جلبت المصائب • • • ؟

نهض ابنى الأصغر • • أدركه صوت أمه :

— اغسل يديك •

تذكرت أننى لم أتوضأ • لم أصل المضرب • انطلقت الى
المسجد • • اقتربت من دار عكاشة :

— أخبرنا عبد الحق أن مجيء أهل العزبة الى قريتنا • تعاملهم
معنا سوف يملأ جيوبنا بالنقود •

— ربما •••

— أحلام برجوازية صغيرة •

سبور • • برجوازية ؟ ما معنى هاتان الكلمتان ؟ لم لا أسأل
عنهما • ؟ لو منحتنى فرصة السؤال ؟ :

— قال عودة اللصوص الى القرية بجانب وجود سامى فيها ••
سوف يجلب لنا الرخاء • • قال ؟ لو وجدونا قرشا لنشلونا •

لماذا لا تكون كلمة برجوازية .. من مصطلحات مخلوف
 النجس ؟
 ليل القرية جثة مزقتها سيارة . لماذا كان صوت نواة
 جريخا ؟ ينزف حزنه العميق بمرارة ؟ :
 — أخشى أن يكون قطاع الطرق خدعوا رجال قريننا ..
 اتفقوا معهم قبل أن يعرفوا التفاصيل .. ؟
 توقفت لحظة أمام صنبور المياه . الماء ثلجى .. كلمات نواة
 .. اشعلت فى عروقي نار القلق والخوف .. أيقظت فى صدرى
 ماردا يعلن عن .. غضبه .. !
 غادرت المسجد . القمر شاحب . أرسل الحزن مع خيوطه ؟
 الكتابة تغطي كل شيء ؟ ماتت قريننا .. !

١٣

فتحت القرية عيونها . أبوابها . على صوت استغاثة :
 — أدركونى يا بلد .
 — ماذا حدث يا جبريل ؟
 — مصيبة ..
 — عاد الوافدون . أشعلوا النار فى نباتات قمحك ؟
 — ليت هذا حدث .
 — ماذا هناك .. اذن ؟
 — عندما كنت ذاهبا الى الغيط .. مررت بجوار المقابر
 وجعلت ..
 لماذا أمسك جبريل عن الكلام ؟ لماذا جلس بجوار الحائط ؟
 صنع من ركبتيه زاويتين . تدلى ذراعااه . دفن وجهه بين ركبتيه ؟

ظلال الدحشة تفترش كل الوجوه • تقابلت العيون المرتعشة •
تجبرت فكا صالح :

- أخبرنا يا جبريل • ماذا وجلت في المقابر ؟

- وجلت بعض القبور مهدمة • جثث الموتى ممزقة • •
مبعثرة في شوارع المقابر •

سقطت من الأفواه شهقات • هتف زاهر :

- لا اصدق أن هذا حدث • فعلا •

نهض جبريل واقفا :

- ولكنه الواقع • •

- الحقيقة أن • • • • •

قاطعت ثورة زاهر :

- أين الحقيقة في هذه القرية ؟

فادتنى قدمائى نحوها • جذبتنى اليها المראה المتدفقة من
صوتها الأبيض ؟ الحزن الراقد في عينيها السليتين ؟ :

- لماذا لا نذهب الى المقابر ؟

- كلام معقول •

امتدت الخطوات • ترى من الذى قام بنبش المقابر ؟ استخرج
جثث موتانا ؟ منذ أن جاء للصمص إلى قريتنا • • كفن كل شيء
حزن ثقيل • • حتى أشجار الزيتون التى أحرقوها • هجرتها
الطيور • رغم أنها أورقت • عادت إليها الحياة • • لم تعد إليها
الطيور • • •

اقترب أهل القرية من المقابر • هتف جبريل :

- ستجنون الكثير من الجثث • • •

لماذا لا يكون الوافدون ٠٠٠ ؟ انتهت اللحظات القصار التي
ظن فيها أهل القرية أنهم تمتعوا بالسكينة ؟

أعلنت نواراة اعراضها على مجيء قطاع الطرق الى قريتنا .
الكراهية تملأ قلوبهم . لا يحترمون وعدا .

هل نسوا يوم السبت ٠٠ ؟ يوم أن أوقفناهم عند حدهم ٠٠
وعرفنا معنى الثأر ٠٠٠ والحياة ٠٠٠ !

جرشت أسناني . لم يبق الا الموتى ٠٠ ؟ لو وقع اللصوص
فى أيدينا ؟ ماذا سنفعل ٠٠ ؟ ينتهكون حرمانا ٠٠ ونسكت ٠٠٠ ؟
يصفعوننا على أفقيتنا وتظل أيدينا مقيدة ٠٠ ؟ يوم السبت قابلناهم
٠٠ اكتشفنا وجودنا الحقيقي ٠٠ ما زالت البندقية التي ظفرت
بها منهم فى داري ٠٠ !

طافت عيناى بأشجار الكازورينا التي تحيط بالقرية . لماذا
تبدو منكسة الرموس ٠٠ اليوم ؟ منذ سكت نقر الدفوف . قرع
الطبول فى القرية . ملأت الثعالب شوارعها ؟
تزاحمت العيون المتلهفة على فوهات المقابر . زحخت الأقدام
نحوها ٠٠ هتف زاهر :

— ليس هذا من صنع انسان .

— من الذى قام به ٠٠ اذن ؟

انذاحت التعليقات :

— لابد أن العفاريت قامت بهذا العمل .

— بل بكرة بكر هي التي قامت به .

— لم لا يكون حمار أحمد عبد العار ٠٠ ؟

انشقت شفثاى عن ابتسامة ٠٠ وسط المقابر . فى مثل
هذا الموقف ٠٠ لدينا قدرة على المزاح ؟

اشار زاهر بسبابته نحو فوهة إحدى المقابر :

— هذه آثار مخالب ثعالب أو ذئاب .

الصمت يزحم المقابر . لماذا عشمش الصوت المبحوح في
الحناجر ؟ أدرك أهل القرية صدق قول زاهر ؟ لماذا لم تعد الأقدام
القلقة تستقر في مكانها ؟ تعكس اضطراب الأعماق . . !

طفا سؤال مرتعش :

— ما العمل ؟

كم مرة القى رجل من القرية هذا السؤال ؟ ألف مرة ؟
مليون . . ؟ لن يسأم أهل القرية تكراره . . !

ارتفع صوت محمد الفندى :

— يخيل الى أن أكثر من ذئب قام بهذا العمل .

— لماذا هاجمت الذئاب مقابر قريتنا . . عندما جاءها
اللبصوس و « برطعوا » فيها . . . ؟

اهتزت الرموس . تحركها أشياء كثيرة . . . ! :

— ليس أمامنا الا مهاجمة الذئاب عندما تعود الى المقابر ليلا .

تسلسل صوت مسرع :

— ولكن . . .

— الكلام الواضح لا يحتاج الى إيضاح . .

١٤

تطلعت الى القرية المنحوتة في الظلام . عيون الرجال تتوهج
بنار الغيظ . ترى كم ذئبا قام بنبش المقابر أمس ؟ خمسة ذئاب ؟
تسعة . . ؟ ستاتى الليلة . . . !

تحسست بندقيتي • لم أحملها منذ أن غنمتها من اللصوص •
بعد العصر كانت زوجتي تقلى بطاطس • بيضا • طلبت منها زجاجة
الزيت • وضعت قطرات على الزناد •
التقطت أذناى صوت نوازة • رفضت المساومة على دم ابنها
الحسينى ••• ؟

عادت كلمات عكاشة ترن في أذنى :

— أصبح سامى الأمر الناهى فى القرية ؟ طلب من العمدة
تعيين زاهر نائبا للعمدة • عبد الحق شيخا للخبراء • طبال القرية
عاملا للتليفون •• انشاء نادى للعاملين فى دكاكين سامى •
— •••••

— زعم أهل القرية أنهم تخلصوا من شر مخلوف •• وقعوا
فى بلاد سامى وقطاع الطرق •

حملت الريح عوا، ذئاب • لابد أنها قادمة • منذ عامين قطعنا
داير ذئب أجرب • كان يهاجم عريشة أحمد عبد العال • ضربه
صالح على رأسه بالفأس • بترته •

وضعت مقلوفا فى حوصلة البندقية • لم يمر أسبوع على
مجيء اللصوص الى قريتنا • حتى حمل كل منهم حقيبة بها ملابس
جاهزة ولعب أطفال و •• أقام البعض دكاكين ملاحا بالمعلبات
وأدوات الزينة •• الشيخ يوسف يقول :

— أهل العزبة يعبدون الهين •• الله •• والمال •

— ألا تكفى دكاكين ووكالات سامى التى تملأ القرية •• !

الضوء ينساب من نافذة عبد الحق • لماذا لم يأت معنا
الليله ؟ عقب عودته من العزبة • وضع يده على كتف الشيخ
يوسف :

- سوف ترى بعد قليل آثار زيارتنا للعزبة .. سوف تفرق
القرية في الخيرات .

- أخشى ألا نجد « الدقة » بعد ذلك .

اشتد هبوب الريح . أطفأت المشاعل . نظرت نحو النهر .
الى متى تصفع أمواجه الثائرة وجه الشاطئ المستكين ؟ أحقيقة أن
ترعة جديدة ستمتد منه الى أرض العزبة ؟ كيف يروى ماء نهرنا
أرض قطاع الطرق .. ! أرضنا اللاهثة في حاجة لكل قطرة ماء .
عندما قرر الأستاذ محمد الذهاب الى العزبة ومعه زاهر وعبد الحق .
طلبوا من نواراة مصاحبتهم . رفضت :

- اللصوص .. هم قطاع الطرق .

قال الأستاذ عبد الحق :

- أنا أضمن .. أهل العزبة .

- من يحاول أن يقبض على الزئبق فهو أحمق .

ارتفع عواء الذئاب . اقتربت من المقابر ؟

توقف الرجال . اشار صالح بيده :

- لا تطلقوا النار الا بعد أن تدخل الذئاب شوارع المقابر .

سبوا عليها كل المنافذ .

- اذا أخطأ الرصاص .. لن تخطيء العصي والفئوس .

ميزت عيناي شبح ذئب يتقدم قطعيا من الذئاب . لمأذا
توقف ؟ التقطت أذناه همس أحدا ؟ شم رائحة البارود ؟ حدثه
قلبه أن .. ؟ سيقدر العودة .. ؟

حينما كنت عائدا من الحقل أجر بقرتي . كانت تسير
ببطء . كأنني أسحبها الى الجزار . كانت تعرف أن اللصوص
يتربصون في الظلام عند مدخل الشارع المؤدى الى داري .. !

توقف قطع الذئب • تتهيا للهجوم على المقابر ؟ تنتظر
إشارة التقدم من الذئب الضخم • ؟

لو اشتد هبوب الريح • حملت السحب • دوى الرعب ١٠٠
يوم أن خرجنا للملاقة قطاع الطرق • كانت السحب الداكنة
تتسابق على صدر السماء • برقت • همست نوازة :

— نحن نخزن البرق بين الضلوع •

تقدم الذئب الضخم • تبعته بقية الذئاب •

اندفع الرجال نحو منافذ المقابر • شددت قبضتي على بندقيتي
• أبثها غضبي • حقدى ١٠٠ ؟

ملت على أذن نوازة :

— يبدو أن السماء ستمطر •

— لعل المطر ينهر •

انهالت رخات الرصاص • • هطل المطر •

رحيل السواقى بحثا عن النهر

تقافزت العيون بين السحابة القائمة الزاحفة على صدر السماء
.. الطريق الترابى الممتد الى القرية :

- لم يأت امام المسجد . السحابة سوف تغطي القرية بعد
قليل .

لماذا نظر دهشان نحوى ؟ يحملنى مسئولية تأخير خطيب
الجامع ؟ ألم أخبر الحاضرين أننى ذهبت الى داره ؟ قالت لى ابنته
انه سيتوضأ . يلحق بكم عند الساقية ؟

تنهد متولى حسائين :

- كل تأخيرة وفيها خيرة .

غطت السحابة وجه الشمس . امتلا المكان بسكون غريب .
تسربت الحيرة الى الصدور ؟ ماذا تفعل لو عبرت السحابة سماء
القرية ؟ قبل أن يأتى واعظ المسجد ؟

شرح الصمت صوت يمامة تترنم بصوتها الحزين • منذ متى لم
ترو الأرض ؟ شهر ؟ خمسة أسابيع ؟

وميت ببصرى نحو أرضى المزروعة بالقمح • الشقوق
تملأها • إذا لم تسق سوف تموت النباتات • من أين أطعم الأفواه
المفتوحة ؟ لا يمتلئ • لا تعرف الشيع • • !

عادزبصرى الى الساقية • كان كل واحد يسحب جاموسته •
يأخذ بكرة جاره • صديقه « زمال » تروى الأرض • لم تعرف يوما
معنى العطش • منذ أن كسر حولى العمدة سنتين فى الترس الحشبي
الكبير • قصف ابن شيخ الخفراء الشعبة • تقب قبانى القرية
الطنبوشة • لم يفكر أحد فى اصلاحها • صارت خربة • الآن ندفع
الثلث أحزاناً مريرة • • ؟

راحت أصابع دهشان ترسم خطوطاً بين قدميه • يدفن
حيرته ؟ ينبش عن حل ؟ سيوفق • • !

تلقت حولى • امتلأت القنوات بالتراب • الحجارة والحشائش ؟
عادت عيناي الى الساقية • نامتا على ترسها المتآكل • منذ آلاف
السنين تعمل فى صدر الحقل • • رثة بين ضلوع الانسان • • لم
يشعر أحد فى القرية بطعنة جوع • • صارت الساقية • • !

عندما صحبت ابني الصغير الى طبيب الوحدة المজেمة :

— يسعل طوال الليل •

— رثته مصابة •

كفت أصابع دهشان عن النبش فى التراب :

— تركت الساقية دون اصلاح حتى • •

لوح متولى فى وجهه :

— تتحدث عن الساقية وكأنك تمتلكها وحدك ؟ ألسنا شركاء

فيها ؟

خطوط الحزن والمرارة تزحف على وجوه أهل القرية .
يتحسرون على الأيام الماضية ؟ أدركوا خطورة موقفهم الآن ؟ لو
أحضروا نجار السواقي . ليصنع خرسين . دق مسمارين في
الشعبة . جاء الحداد . أصلح الطنبوشة ؟ ماذا كان سيدفع كل
صاحب فدان ترويه الساقية ؟ ثلاثة قروش ؟ بدلا من تعميدها .
أخذ كل واحد يمر عليها يخلع مسمارا . يلتقط خرسا خشبيا .
صار الترس . . فم عجوز . . أصبحت الطنبوشة غربالا . . !

شرب متولى كفا بكف :

— أعواد القمح . البرسيم . الفول مهددة بالجفاف . الأرض
سيصيبها البوار .

البوار في الأرض أم في تفكيرنا ؟ لو أحسن أهل القرية
استعمال الساقية . صيانتها ؟ لما حدث لها ما حدث . . ! لكن كل
واحد يأخذ بحقه حلفاء . بشر يستنزفها .

متى تتدفق المياه من صدر الساقية ؟ تسترجع أينها ؟ نرد
على أنغامها المواويل . . !

احتضنت ذراعي ركبتي :

— ما رأيكم لو أحضرنا طلبية رى الهواري ؟

تخص متولى صدره :

— الهواري يقبض مقلما . . الساعة بجنيه كورقة البوسطة .

— اذا كانت النقود مهمة . . حياة الزرع أهم .

هتف الحاج ومضاه :

— أخبرني الهواري ان الدنك معطل . يحتاج الى قطعة
غيار .

- هذه حجة يتخذها الهواري • لكي يرفع سعر الساعة الى
جنيه ونصف •

بعد دهشان يله في جيب الصديري :

- من أين نشترى له قطعة الغيار التي • • ؟

- قطع الغيار غير متوفرة •

- وما العمل ؟

حينما كانت الساقية تتعطل ساعة نسرع الى نجار القرية •
ينق مسبارا في « الهودية » • في الترس العلوى • تعاود عملها •
أما هذه المرة • خرسها خولى العمدة • ابن شيخ الخفراء • قباني
القرية • تحتاج الى « عمرة » كبيرة • • !

رفعت رأسى • لماذا احتضنت العيون وجهى ؟ ينتظرون رأبى ؟
أين تفكيرك السليم ؟ شل عقلك ؟

في الصباح قذف ابني الأوسط بفارسه الطينى • كسرت
رأسه •

تطلعت الأبصار الى السماء • اقتربت السحابة • لو أمطرت؟
لم لا ؟ ليس هذا على الله بشيء عسير • أمنية صغيرة • لماذا لا تتحقق؟
لو تحققت لأمكننا أن ننقذ الزرع • نفكر على مهل فى اصلاح
الساقية • رى الأرض العطشى •

مر رجل يركب حمارا يضع على ظهره محراثا • كان يشق
الأرض • زوجتى تسقط حبات الذرة من قبضتها فى رحم الخط •
ما هذا الذى ارتعش فى صدرى ؟ احساس بالخوف من المجهول ؟
ماذا لو • • ؟ تموت الحبوب قبل أن تمتد جذورها فى الأرض ؟
لا تخرج منها أوراق خضراء • • !

أقبل خطيب المسجد :

— لماذا تأخرت يا مولانا ؟

— ماذا كنا نفعل لو انك لم تأت الآن ؟

تعلقت بشفتيه ابتسامة :

— الحمد لله انى جئت • هيا لنصلى • سقوط المطر يعنى
الخير • عسى الله أن ينزل الغيث • هذه المرة • يجب أن نصلح
الساقية • طلب الله من السيدة مريم أن تهز جذع النخلة •

وقفنا ضفوفاً خلف فقيه القرية •

مر نصف السحابة • لو ألقى بنصف ماؤها ؟ نسقى الأرض
المتشوقة للماء •• أنشئ فى شوق الى الذكر •

كود خطيب المسجد مسبحته فى قبضته :

— جفاف • برد فى وقت واحد ؟ أليس هذا دليلاً على غضب
المولى علينا ؟

أشار متولى بيده :

— لابد من عمل جاد لانقاذ النباتات من الذبول و ••

هزئت رأسى :

— لا تكفى النوايا الطيبة •

لأس واعظ المسجد مسبحته فى جيبه :

— نطلب من الله ماء يحيى به الأرض ••

ارتبطت العيون بالسحابة • لماذا تسرع فى سيرها فوق
الحقول ؟ قررت أن •• كانت منذ قليل تزحف ببطء • على جدران
نفسى تحبو نباتات شوكية •• !

حكاية رى الأرض زرعت الخوف • القلق • الحيرة فى
الصدور • تطارد فكرى بالنهار والليل • ستترك نباتات القمح
والقطن و • تدوى • أطفال يموتون • • !

لم يبق سوى ذيل السحابة • لو أمطرت ؟ يكفى أن تبلل
الأرض • قطرات ماء على لسان ظامى • تمتلئ نصف السنابل • •
وإذا لم ؟ يحل الجوع • • البوار ؟

أطل وجه الشمس • لماذا يبدو ذهبيا لامعا ؟ يسخر من
أحلامنا • • الصغيرة ؟

سقطت رموس أهل القرية على صدورهم • • انتقل بصرى الى
السنابل المائلة على أعوادها • منذ دقائق كانت الأمانى تملأ
جوانحنا •

زفر دهشان :

– سنترك الأرض عطشى تتحرق الى الماء ؟

كور متولى يده :

– كيف أدبر أمر النبت الصغير الذى بدأ يظهر • يكسو
الأرض بالخضرة الحلوة ؟

متولى أول من زرع أرزا • ظهر فى الأرض الشراقى الواسعة •
أتراه يذبل • يموت ؟ كيف يترك أهل القرية زرعهم يخيب ؟ لم
يخب لهم زرع من قبل • لابد أن يروى بأية وسيلة مهما كلفنا
الأمس • • !

عفى متولى شفته :

– لماذا لا نبحث عن حل آخر ؟

لوح دهشان بيده فى يأس :

— لقد ناقشنا كل الطرق •

— حلت علينا لعنة السماء ؟

واعظ القرية دائما يقول :

— لو تطهرت النفوس من أنايتها • خلت القرية من أمثال

نبوية • • لبارك الله في كل شيء • •

نبوية ؟ جسدها مرتبة لكثير من رجال القرية • عندما تفتح
الشباك • تلقى بنهديها البارزين فوق قاعدة النافذة • فتحة ثوبها
تكشف عن مفرقهما الحليبي • نظراتها تجرد الانسان من ثيابه •

حق عبد التعليم مدار الساقية بقبضته :

— ما رأيكم لو استأجرنا طائرة تسقط مطرا • • صناعيا ؟

— كيف ؟

— ترش الطائرة فوق السحب التي تمر في سماء قريتنا

نترات فضة أو يودور بوتاسيوم •

تسعت عينا متولى :

— ماذا تقول ؟ ن • • نثر • • الفضة • • يو • • يو • •

البوتاسيوم يسقط المطر • نروى أرضنا ؟ •

— نعم •

— هل ستكلفنا هذه العملية كثيرا ؟

— ليس المهم • • كم تتكلف المسألة • المهم سقوط المطر و • •

— نريد أن نعرف أولا • لكي نعمل حسابنا •

— خمسة آلاف جنيه هذا بخلاف • •

— يا خير • • خمسة آلاف جنيه ؟

— لو بعنا كل ما نملك لن نجمع خمسة آلاف قرش •

نستأجر طائفة ٠٠ ؟ ننتظر قدوم السحب و ٠٠ ؟ ندفع
خمسة آلاف جنيه ؟ ماذا نفعل عندما يقبل الصيف ؟ كانت ساقيتنا
أبرك من عشر طائرات ٠ كانت تروى أرض القرية في أى وقت ٠
دون أن ندفع جنيها ٠٠ !

غمغم دهشان :

— من الأفضل أن نصلح الساقية ٠٠ كما قال مولانا ٠

زُفق متولى :

— المهم أن نروى الأرض على وجه السرعة سواء أحضرنا قطعة
غيار و لديك « الهوارى أو ٠٠ دفعنا جنيها ونصف في الساعة ٠
لو امطرت السحابة ٠ ؟ قبل أن نأتى الى هنا ٠ قابلتنا
نبوية ٠ كانت تحمل بلاصا فارغا ٠ لماذا لم تبتعد عن طريقنا ؟
دخلت أحد الأذقة ؟ أولتنا ظهرها ٠٠٠ ! :

— يجب أن نثق فيما قاله الباشمهندس عبد العليم ٠ انه
يعرف ما لا نعرفه من العلم الحديث ٠

ابتسم عبد العليم ٠ ما زالت ذيول ضحكات نبوية ترن في
أذنى ٠ حين أسير أمام دارها أجدها متكئة على حافة الشباك أو
جالسة على عتبة الباب ٠ صدرها العارى ٠ جلبابها محصور عن ساقها
٠٠ أخذت نقود ٠ امتصت دماء كثير من رجال القرية ٠

قلب دهشان كفيه :

— سنترك تعبنا ٠ عرقنا شهورا ٠٠ يجف على الأرض
العطشى ٠٠ ؟

تطلعت الميون الى السماء ٠ تعلقت بسحابة سوداء تزحف
بيطء نحو القرية ٠٠ تمتمت الشفاة المتلهفة بدعاء ٠٠ خافت ٠

اختنقت الدار بأهل القرية • امتنت الأيدي الحشنة نحوه
مهتة :

— مبروك •

—

— ألف مبروك •

— انشقت شفتاه ••

— فرحنا كثيرا •

— زحفت ظلال ابتسامة على شفتيه •

— تهانينا القلبية • الحمد لله أنك وجدت الكردان الذهبي •

—

— عندما سمعنا نبأ ضياع الكردان الذهبي • استعوضنا الله •

— ها هو قد عاد •• بعد سنوات •

• ارتفع هديل الحمام العائد الى البناني • ترنحت على شفثيه
الابتسامة • ذبيحة • اقتلعها من تحت الضرس ؟ من دوامة الحيرة • ! :

• يوم المنى • يوم عودة كردان زوجتك الضائع •

• زادت الابتسامة المسلوخة اتساعا • لا تملك سوى الابتسام ؟
لو نطق لسانك بكلمة • • سوف تفضحك نبرات صوتك •
أخشى أن تفشل في اخفاء اضطرابك • الى متى ستظل صامتا ؟
تكتفى بالابتسام • • لماذا لا ترد • • تخشى الكلام • • كيف
تبرر صمتك • • الفاضى • • ألا يثير في الصدور نار الفضول • ؟
محاولة معرفة مفتاح اثارته • • لو تحدثت لوقعت في الخطأ الذي
تخافه • • كيف تسكت ضربات الدم الهائجة في عروقك • • الى
متى ستظل تسمع نهاني أهل القرية • الدمع يملؤ صدرك ؟ :

• لو كنا مكانك الآن • • لذبحنا عجلا وأقمنا ليلة كبيرة •

• صارت الابتسامة • • عملة ممسوخة • • أدرك أهل القرية
أنك ترسم هذه الابتسامة في لحظات الضيق ؟ لو تدفق نهر
الدمع من عينيك • • !

الريح تدفع أمامها سحباً قائمة كاللخان المتصاعد من بناء
يحترق • من أين أشتري عجلا • • أقيم سرادقا و • • موت
وخراب ديار • • هناك أمور كثيرة غير طبيعية يتقبلها الانسان على
أنها حقائق • • أخشى أن تطل الحقيقة برأسها من الوحل • •
تنتقل من فوق المصاطب • • تسلسل الى السطوح • • تتخطى
شواشي الأشجار والنخيل • • تتلقفها كل أذن صاغية • • أنا على
يقين أنها لن تترك لسانا الا وتمتزج بلعابه • • ! :

• لا ندرى كيف نعبّر لك عن فرحتنا • • بعد خمسة عشر
عاما • • يعود اليك كردان زوجتك المفقود • ؟

لماذا تتفحص العيون وجهي ؟ تدفق طوفان الدمع من عيني ؟
حمل معه وحل الحقيقة ؟ .. أخشى أن يدرك أهل القرية ان الابتسامة
التي الصقتها بشفتي مفتحة .. مزيفة ؟ .. لو قرأوا في عيني
شيئا مما أخفيه ؟ .. صارتا مرآة صافية لأعماقي ؟ .. حفر الطوفان
على وجهي أخاديد الحقيقة ؟ لو أعلنت عن نفسها ؟ .. بطن جيفة
مبقور خرجت أمعاؤها .. الى متى ستظل مختفية ؟ لا يعرف الذباب
طريقها ؟ لو لم أعلنها .. سوف يبوح بها ابني ؟ يفلت بها لسان
زوجتي ؟ .. يعلنها للصمص ؟ .. ماذا قلت ؟ .. للصمص ؟
أنا نطقت بهذه الكلمة ؟ أسمعها أحد من الحاضرين ! .. :

— هل وافقت على حكاية شراء عجل وذبحه واقامة ليلة
لأهل الله ؟

لو حاولت التلمص من أهل القرية .. سوف يجمعون على
ويصفونني بالبخل والشح .. لو وافقت على اقامة وليمة و ..
ستظل الحقيقة مختفية .. لن يصل اليها الذباب .. لكن الى متى ؟ ..
الحال ستر الهى ! ..

— يوم أن أعلنت عن ضياع كردان زوجتك الذهبى . حزنا
جميعا من أعماق قلوبنا .

—

— لماذا لا تتكلم ؟

أكتفى بالابتسام ؟ غلت هذه الابتسامة الذبيحة جزءا من
شفتي .. تمثال نحاسي ؟ الى متى أبتمس ؟ الطير الذبيح يرقص من
الألم ! .. :

— لا بد أنه يؤثر الاستماع على التحدث .

عندما ذهبت للصمص :

— اننا نعمل لمصلحتك .

— بل تعملون لمصلحتكم أنتم •

— لمصلحتنا المشتركة •

ارتفع صوت امرأة عجوز :

— لقد استجاب الله لدعواتنا • وعاد الكردان الذهبي ••

المال الحلال لا يضيع •

الوجوه باسمة • الا وجهه ؟ رغم الابتسامة الملتصقة بشفتيه؟
حقيقة أن الكردان الذهبي عزيز على • كان شبكة زوجتي منذ آلاف
السنين • تحرص عليه كحياتها • عندما نزع اللصوص من عنقها •
حاولت أن تصرخ • لطمها أحدهم على وجهها • ماتت الصرخة على
شفثتها • أصابها الخرس • فكرت في الذهاب الى المحكمة :
— المحكمة حبلا طویل •

ارتفع صوت خشن :

— اذا لم يكن معك نقود الآن •• سوف ندفع لك ثمن العجل

و •• و •• نظرة الى ميسرة •

من أين أسدد •• ؟ كل شيء من لحم جسدي •• من دمي ؟
حينما اقتحم اللصوص داري • كنت نائما • أحسست بصيرير باب
الدولاب • فتحت عيني • رفعت رأسي • اصطدمت بفوهة بندقية •
وجدت وجهها حربائيا • أنفاس معقوفة • عينين ثعلبيتين • ينطلق
منهما وعيد • أعلن أحد اللصوص •• أنه لم يثر على شيء في
الدولاب • امتدت يد المسك بالبندقية نحو صدر زوجتي • انتزع
كردانها الذهبي • دسه في جيبه •

عاد صوت العجوز :

— لماذا لا تقيم جبال وعناقيد الأضواء الملونة على دارك •• ؟

كنا ننتظر هذا اليوم بفارغ الصبر •

عندما هم اللصوص بمفارقة دارى .. هز سارق الكردان
الذهبي رأسه . غمز بعينه الثعلبية :

— اذا أردت أن تسترد كردانك الذهبى .. تعال إلينا ..
فى العزبة .

أشعل سيجارة . تراكمت على ذهني سحب الدخان ؟ فى
الصباح كانت زوجتى تشعل الفرن . ملأ الدخان المندرة .

وحت أسعل :

— هل تشعلين العرصة بقش مبتل ؟

هزت رأسها نفيا . تذكرت أن الخرس أصاب لسانها منذ
أن انتزع اللصوص كردانها الذهبى من حول عنقها .. ولطمها تلك
اللطة القاسية على وجهها .. ! :

— نريد أن تكون ليلة من أروع الليالى .. ألف مبروك .
منذ عامين وصب ابنى فى الامتحان . كلما قابلنى أحد من
هل القرية :

— ماذا فعل ابنك فى الامتحان ؟

— الحمد لله .

— ألف مبروك .

— أين العلاوة .. الشراب ؟

كانت كلمة مبروك .. تحز فى قلبى .. كسكين ثالثة .

جذب نفسا من سيجارته . عندما ذهبت الى العزبة . أخذ
اللصوص ينظرون الى من تحت أهدابهم الزغبية .. فى دهاء الصائد
الماكز . الخبيث .. وابتلعت الطعم . ثم بدأوا يجذبون السنارة
يرفق وهواة .. كانوا يتحدثون . يملون على شروطهم . لم أستطع

أن أرفع رأسي من بين قدمي • لم أجد سوى كلمة • • موافق • •
على كل شرط يفرضونه على • • لكى أسترد الكردان الذهبى • •
لو رفضت شرطا من شروطهم • • لطردوني من العزبة • • علم
الجميع أننى ذهبت اليهم بقدمي • • ملأت الفضيحة العب • • كله
• • كيف أعود من منتصف مستنقع الوحل • • ؟ لقد تورطت • •
لماذا لا أداوى الوحل • • بالوحل ! • • •

سحق الثعابين الزاحفة من فوهة سيجارته تحت بلفته • •
ليتني أستطيع أن أخنق المخاوف التى تتشعب فى أعماقى • • ؟
كيف خدعنى اللصوص ؟ لماذا وافقت على مطالبهم المجحفة • • ؟ أين
كان عقلى وكبريائى • • ؟

هرمطوا بى الأرض • • ذات مرة حاولت رفض أحد شروطهم :

— أنسييت أن العصا كفيفة بمعالجة عنادك ؟

الرياح تزار • • شواشى الأشجار تنحنى • تكاد تكنس التراب •
لم يكن هناك مفر من الانحناء • • ؟ الموافقة على شروط اللصوص • • ؟
حتى أسترد كردان زوجتى الذهبى • • ؟ فاقث الاعيبهم رمال
الصحراء عددا • • خداعا • • !

الكلمات تتناثر حوله من الأفواه • الأفكار راكدة فى رأسه • •
بحيرة ساكنة • • ! :

— ماذا قلت ؟ ستقيم ليلة لم يشهد العب مثلها بمناسبة
عثورك على كردان زوجتك الذهبى • • ؟

**ابتلع زفرة نارية كادت أن تفلت منه • لم يعد يحتمل طعنات
السكاكين الثالثة :**

— يا جماعة • • يا عالم • • أنتم لا تعرفون الحقيقة •

— نعرفها •

استل آهة مشتعلة من أعماقه ..

ماذا قالوا ؟ يعرفون الحقيقة .. ؟ يخفونها طوال تلك السنوات .. ؟ كانوا يعلمون بترددك على العزبة .. ؟ من الذي أخبرهم .. ؟ زوجتك ؟ لم يفلت لسانها من مخالب الخرس الا منذ ساعتين .. ؟ ساعتان كفيلتان بإطلاع القرية على أسرار لعب كله .. ؟ لكن زوجتك ليست ثرثرة .. لابد أنه ابنك .. وعليك ألا ينسبح بحرف من وراء ظهرك .. أكمل اللصوص طعناتهم فى الظهر ! .. !

قبضت يد شوكية على قلبه . تحول القلق المتدفق فى شرايينه الى خوف .. استحال الخوف الى رعب .. ؟ تأكد له ما كان يخشاه .. ؟ قد وقع ؟ عقب سرقة الكردان لم أستطع رفع عينى أمام أهل القرية .. على الرغم من ادعائى أنه ضاع وهى تفصل الأواني النحاسية على الموردة . أو سقط من صدرها وهى تجمع سنابل القمح المبعثرة .. بعد أن رده الى اللصوص .. اليوم .. أصبحت نظراتى لا تفارق قدمى ! :

— سبحان الله .. كردان ذهبى .. يضيع سنوات طويلة .
ثم يعثر عليه .. ؟ والله هذا حدث يستحق ذبح عجولين ..
على الأقل .

عندما سرق اللصوص كردان زوجتى .. كان الجرح بحجم الكردان . كلما هنأنى أحد .. يتسع الجرح .. أخشى أن يصعب باتساع القرية !

أقبل ابنه . لماذا ينظر الى وجوه أهل القرية بعينين ذاهلتين ؟ :

— ماذا هناك .. يا جماعة ؟

— جئنا نهنيء أباك .. لقد عثر على الكردان الذهبى الضائع ..
بعد أن فقد الأمل فى عودته . نطلب منه أن يقيم وليمة
لأهل الله .

— كان الكردان ضائما ؟ أتعرفون الحقيقة ؟

— نعم .. نعرفها .

— أمثل هذه الأمور .. تخفى علينا ؟

أخبر اللصوص أحدا من أهل القرية .. ؟ نشر الخبر ؟ طلب
للصوص منى أن أؤجر لهم حجرتين فى دارى . لماذا قبلت ؟ كيف
يضم الحمل والدثب بيت واحد ؟ :

— أتريدون أن تصبح دارى مأوى لكم ؟ تصير القرية سوقا ..
لتجارتكم .. ؟

— لم لا ؟

— هل سيقبل أهل القرية التعامل .. معكم ؟

— ها هي .. فرصتك . لو انتظرت قليلا دون أن تعلن
موافقتك .. سيخرج الأمر من يديك .

تلقت حوله . أين ذهب ابنك ؟ لماذا ؟ صعد فوق ظهر الفرن ؟
لماذا وقف أهل القرية أمامه ؟ يتطلعون الى وجهه ؟ .. هل سيخبرهم
بشيء .. ؟ ما هو .. ؟ منذ أن سرق اللصوص كردان زوجتك ..
ادعيت ضياعه . وأنت ترتدى قناعا . ظن أهل القرية أنه وجه
حقيقى ... !

ارتفع صوت ابنه :

— من الذى زعم أن الكردان .. كان ضائما ؟ انكم تجهلون
الحقيقة .. سأوضحها لكم ...

مغارة على بابا

تدفق دم الغروب على صدر القرية • انتقل بصرى بين سراى
شيخ الخفاء ودارى المهمة • مضت بين أضراسى احساسا مرا •

جاءنى صوت زوجتى :

- ما رأيك لو بعنا قيراطين • • وأعدنا بناء دارنا ؟

.....

- خلاص • • تبيع الجاموسة •

.....

- أى الاقتراحين • • اخترت ؟

- الأول مر • • الثانى علقم • • !

- ماذا قال لك سامى ؟

- سيأتى بعد قليل •

السماء صافية • سحب الحزن والكآبة تفهر صدرى :

— أخشى أن ينسى سامى موعده معك •

كيف ؟ لقد قال لى اطمئن • سوف الحق بك • تركت كلماته
الحلوة أثرا جميلا فى نفسى • لماذا لم أحس بصدقها • دفنتها ••
الآن ؟ أتراه ما زال يذكر حكاية سرقة التمثال الكبير •• ماذا
أقول له عندما يأتى ؟ :

« الشتاء على الأبواب • الدار مكشوفة للمطر والرياح من كل
جانب » •

« أعرف ذلك » •

« الأسمنت والحديد غير متوفرين » •

« بل كل شىء موجود » •

« أين •• ؟ فى مخالب جماعة من المضاربين •• ؟ » •

تكووت بجوار جدارى المنهار • سياط البرد تلسع عظامى •
مددت بصرى نحو نباتات الطباطم المزروعة على شاطئ التربة •
تلتحف بالقش •• ليس فى دارى لحاف •• حصير الصيف ••
واسعة •

مرت أيامه كالبرق • كنا نفترش العراء •• لكن الشتاء ••
كلما أقبل ليله يخيّل الى أن وحشا يتربص بدارى • سيفترس
أولادى •• !

حط بصرى على مثذنة المسجد :

— ماذا بك يا سعيه ؟

— ألا تعلم يا مولانا ؟

— ليست دارك وحشدك التى نال منها الحريق •• تفادى
بالأمل •• تجده •

— هذه ثالث مرة يأتي عليها الحريق .

تتهبت :

— الأحزان كالزراع اذا راعيتها . نمت . ترعرعت . اذا
أهملتها . . ذبلت . . ماتت .

لا يكف لسان جدتي عن ترديد هذه العبارة . عندما ترى
طلال الحزن على وجه انسان . لو أتت النار على دارها ثلاث مرات .
هل كانت أحزانها تدبل . تموت ؟ أو ترعرع . . تصبح أشجارا ؟

بعد أن تركت مجلس سامي . نفخ زاهر . سار بجانبى :

— أنظرن أن سامي . . ؟

— من المؤكد أنه سيلحق بك . ويحقق مطالبك .

وحطت عيناي نحو دار خليل الصياد :

— لماذا لا تتور القرية في وجه سامي وأقاربه . . كما هبت
في وجه مخلوف وأقاربه من قبل . . وطردتهم . ؟

— هل يستطيع السمك أن يعترض طريق الحوت ؟ سامي
يسمى الى وضع يده على كل شيء في القرية . . !

حينما مددت يدي مصافحا سامي . ابتسم ابتسامة مسائية :
— أشكرك على هذه الزيارة .

ما هذا الظرف الذي حط عليه . . فجأة ؟ وضعني داخل
دائرة محبته ؟ بلا . . مقابل ؟ لابد أنه يسعى للاستفادة . . ماذا
أملك . . ؟ لم يعد يذكر حكاية اتهامي له بسرقة التمثال الكبير . . ؟
أراد أن يصنع من كلماته خيمة من حرير يغطي بها أطباعه . .
قاذوراته . . . !

تعلق بصرى بذكر توت رمضان عطوة • بعد أن احترقت
داره • نصحه زاهر بالذهاب الى سامي :

— رفضت الذهاب اليه أيام العز •• أذهب اليه ودارى
خرابة ؟

كيف تورط رمضان وباع لسامي حجرين في داره ؟ :
— أخذ زاهر يزن في أذني •• سوف يقدم سامي اليك الأسمنت
والحديد • لن يكلفك الأمر سوى بيع دكانين له •• يزيد دخلك •• و ••
ركب ابن خليل حماره :

— أبوك غاضب عليك •
— لماذا ؟

— لأنك تسير مع عكاشه •
— بصراحة •• جذبتني نحوه كلماته التي تعلمها من مخلوف
•• على الرغم من أنني لم أفهم مغزاها جيدا •
نبح كلب عبد الحسيب :

— الى متى تسير القرية في ركاب مخلوف ؟
— لقد استرشدنا بمن لا يرشد •
نهضت زوجتي • لماذا سارت نحو الجاموسة ؟ ستسحبها الى
الترعة لتسقيها ؟ ستلقى أمامها حزمة برسيم •• ••

أطلت في ذهني صورة عكاشة :
— زعم شيوخ الخفراء أنه سيخطف الفوارق الزاعفة بين من
في أيديهم كل شيء ومن لا يملكون شيئا •• ماذا كانت النتيجة ؟
— كثرت في قريتنا السرايات التي تملأها الأشجار ونباح
الكلاب ••

– مع مقدم سامى الى قرينتنا ظهرت جماعة الحطافين والطفيليين
على حساب الكثرة المستضعفة .

نفرت نحو مستشفى الوحدة المجمة :

– ذهب مخلوف .. ثم جاء سامى الى قرينتنا يا دكتور .
– سامى ومخلوف وأقاربهما كالجراثيم . لا تنال الا من
لأجسام الضميفة .

الأسبوع الماضى قابلت رمضان . كان الحزن يبتلع وجهه :

– ماذا بك ؟

– أهل القرية أكلوا وجهى .

– لماذا ؟

– حكاية الرجل الغريب الذى اشترى حجرتين فى دارى .

– لست أول ولا آخر من باع لسامى نصف داره .

– أصبح همس أهل القرية صياحا .. غمزاتهم كالسكاكين .

٢

**يوم أن حضر سامى الى قرينتنا . وقف عكاشة فوق مسود
كوبرى الأسمنتى :**

– يا جماعة .. استيقظوا .. سرقتم السكين ؟ دققوا .

انظروا . حولكم . لا تحدقوا بعيون فارغة . المصائب . البوار مقبل
على القرية .

صرخ زاهر فى وجهه :

– أى بوار يا قصير النظر ؟ ألم تسمع حديث سامى الذى
يحىى القلوب ؟

— كلمات حلوة لكن ماذا وراما ؟ ماذا تنتظر من تاجر جشع ؟
سيقدم الى القرية جنيتها • يبسط مخالفه ليلف مائة جنيه •
اليس كذلك ؟

— لقد وعدنا •

— وعود الذئب للحمل •

شمس الغروب تلقى أشعتها على زجاج نوافذ سراى شيخ
الخفراء • قصر قباني القرية و • • ؟ تسخر من بيوتنا المهذمة !
بعد أن فشلت كلمات شيخ الخفراء • عاد يسقيننا خمر
الصبر • من يخالف رايه يعتبره متهورا • • !

لمحت فقيه المسجد يسير نحو الجامع :

— وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها
وما يمكنون الا بأنفسهم وما يشعرون •

بعد أن دق مخلوف وأقاربه جلودهم فى ارض قرينتنا • تشاجروا
مع فقيه القرية :

— أنت سبب تخلف هذا البلد •

— أنا أكثر منكم تطورا • هداني تفكيرى الى طريق الله •
اما انتم وعقولكم لم تعرفوا الطريق الى الله • • أينما أكثر تخلفا • •

صاحت دجاجة من جوف دار فريد أبو العينين :

— وعدنا سامى وأقاربه أنهم سينشئون مزارعا للدجاج وأن
ثمن الدجاجة سيصبح كثمن البيضة •

— بعد أن ملأوا القرية بمزارع الدجاج • صار ثمن البيضة
كثمن الدجاجة • لا نعرف ماذا سيكون ثمن الدجاجة • • !

ألقيت ببصرى نحو الجامع • ذات يوم تشاجرت مع مخلوف :

— ربنا على كل ظالم •

- ماذا تعرف عنه ؟

- من ؟ الظالم ؟

- لا .. ربك .

- ربى .. ؟ لماذا لا تقول ربنا ؟

أقلت زوجتى حزمة برسيم أمام الجاهوسة . أرى فى عينيها .
حيرة . قالت لى مرة :

- أهل القرية يتساءلون .. الى متى سنترك دارنا خرابة ؟

فى اول لقاء لسامى بأهل القرية :

- سيكون الحاضر أفضل من الماضى . المستقبل أكثر اشراقا
من الحاضر .

كلب عبد الحسيب يتسكع فى الخرابة الواسعة التى تحتضنها
الترعة والوحدة المجمع . طول عمرنا نسمع . نحلم بأن تصير
هذه الخرابة حيا صناعيا : يعمل فيه آلاف العمال . يسدون
احتياجات القرية من أسمنت . حديد . مبيدات حشرية . و ..
او تصبح واحة خضراء تزرع فيها الخضراوات والفاكهة . كم مرة
وعدنا مخلوف بذلك ؟ مائة مرة ؟ ألف ؟ .. ثم جاء سامى
.. كرر نفس الكلام و ٠٠٠ ما زالت باقية يرتع فيها الكلاب .
يضع فيها أهل القرية السباح . صارت مراحيض .. بعد أن
احتترقت دورهم ١٠٠٠

وقف كلب عبد الحسيب على شاطئ الترعة . تذكرت طرفا
من حوار دار بينى وبين زاهر :

- ذهب مخلوف فى ألف « كسعة » وجاء سامى .. سوف
ترون ماذا سيفعل .. ؟

- ذهب كلب وجاء ذئب .

— لماذا تتعجلوا الأمور ؟ لماذا لا تتقبلوا الحياة كما هي ..

الآن ؟ ..

نظرت نحو التربة . عندما يتدفق ماؤها في الأرض البكر ..
تمشط لها مجارى فيها .

اقترب كلب عبد الحسيب من نباتات الطماطم . عقب طرد
مخلوف وأقاربه من قريتنا .. ارتفع نباحهم . نشط عكاشة :

حودة تسمى في الظلام :

— الفلاح نهب الأرض من المالك . العامل سرق رأس المال
من صاحب المصنع .

٣

حينما أعاد رمضان بناء داره . بكت زوجته :

— بعد أن كانت دارى وحدى خالصة .. أصبح لى . فيها
شركاء ؟ كان على بابها غرارة .. لكن لم يكن أحد يدخلها الا اذا
صفق . جاءه اذن بالدخول . كيف أجلس أمام الفرن . أذهب الى
المراحض .. عيون زرقاء تلتصص على .. !

مرقت سيارة رئيس الجمعية الزراعية . سيجان المنعم . بعد
أن كان يسعى وراء الشلن .. أصبح يملك دفترا للشيكات ..
من لا شيء صار من الأعيان .. ؟ يتظاهر باللفة وهو فى السر يبتلع
غذاء الأرامل . اليتامى . كرشه المحشو طمعا . جشعا .. متى
يعرف الشبع .. ؟

صعد فريد فوق سطح داره :

— نهب مخلوف وسامى خيرات القرية . جعلنا منها سوقا لهما .

سرقا التماثيل التي كانت تملأ الأجران وشوارع القرية .. باى
وجه سنقابل أجدادنا !

ذات ليلة رأيت أقارب سامى يحملون التمثال الكبير الذى
يتوسط جرن التربة . وضعوه فى مركب . استيقظت القرية على
دقات قبضتى الفاضبة المجنونة على أبوابها . ملأت الطواقي ..
التثاؤب . الدهشة الجرن . لوح شيخ الخفراء بخيزرائته :

- كل واحد يذهب الى داره . الصباح رياح .
- لو انتظرنا حتى يأتى الصباح .. فسوف يخفى المركب
الذى يحمل التمثال .

- أخبرنى سامى منذ أيام أن أرض الجرن رخوة .. ربما
يكون قد حدث بها انهيار .. وابتلعت التمثال .

- كان يمهّد لسرقة التمثال ... إذن ؟

- أين آثار الانهيار ... ؟

- هل تصدق سامى .. وتكذب سعيد ؟

انهالت عصي الخفراء على الظهور .. الاكتاف . الرؤوس .
طارت الطواقي . اندفع كل واحد الى داره . أطلقت زفيرا ناريا .
لم يعد الخفراء يستطيعون رفع عيونهم فى وجوه اللصوص . ؟
ألغنا رؤية الفيران تخرج أمام شوارب القط الأسود . تعلى ظهره ..
العريض ؟

التفت نحو التربة . طفا وجه خليل :

- تخلصت القرية من مخلوف وأقاربه .
- ما زالت أفكارهم فى رأس عكاشة والقليل من أهل القرية .
يرتدون ملابسهم المشجرة .

تشاجر خليل مع ابنه :

- ذهابك الى مجلس عكاشة .. كجلوسك في دكان حداد
القرية .

اقبلت زوجتي . ما زال الحزن يصرخ في عينيها ؟ متى تخضر
العيون بالضحكات ؟ تنفض الشوارع عن ظهرها الأتربة المسحوقة ؟
بعد أيام من اختفاء التمثال الكبير . جاءت سيارة تحمل
صناديق مملوءة بزجاجات الزيت . وزع سامي على كل واحد
زجاجة .. نسي أهل القرية حكاية سرقة التمثال الكبير .

كثيرا ما أحس بأن الحياة حولي خرابا . خالية من كل معنى .
الواقع غير واقعي .. ؟ الحقيقة زيف ... ! :

- قبل أن نعرف مخلوف وسامي . كان الصدق . المحبة .
تنبض بها القلوب .

- فقدنا اشراق القرية و ..

- لقد أنزل مخلوف وسامي بقريتنا البوار .

وضعت زوجتي يدها على كتفي :

- كل عقدة ولها حلال . خفف من أحزانك .

- عندما كنت أعيد بناء دارى . ألقى رمضان على السبيل .

سألنى :

- لماذا لا تغنى يا سعيد ؟

- كيف تغنى في زمن الحزن ؟

كلما ادخر أحدنا مبلغا من المال . فكر في شراء جاموسة .
قيراط أرض . وعده زوجته بأن يبدل الأساور الزجاجية بأساور
ذهبية .. ينقض أهل العزبة على دورنا . يلقون عليها كرات من
القماش المشتعل .

- الصفحت ركبتى الى صدرى • أجلب الدفء الى جسدى • • ؟
هى هذا المكان جلس زاهر بجانبى :
 - سيعالج سامى كل مشاكل القرية و • •
 - عندما جاء مخلوف الى قريتنا • • قال نفس الكلام • اخذ
 يراوغ و • • تسلل الى أهدافه خفية كالميكروب • • طردته القرية •
 تركها خاوية على عروشها •
 - سوف ينهج سامى نهجا جديدا • • يأخذ بيد القرية • •
 تتخطى كل الصعاب • • الى بر الأمان • • وسنجرّب •
 - هلبقى للقرية « حيل » لمزيد من التجارب • • • ؟



توقفت سيارة فارحة • نهضت زوجتى • سارت نحو الجامعة •
 انتفضت من مكانى • لماذا ابتسم سامى ؟ سرته هذه الحركة ؟
 هذا يرضيه ؟ تنتفخ له أوداجه ؟ ترضى كبرياه ؟ من أين أبداً مه
 الحديث ؟ :

- « الحريق أتعب • أجهد القرية كلها »
 « أعرف هذه »
 « الأحزان يستنشقها أهل القرية »
 « أسمع فى أرجائها ضحكات »
 « تنطلق من الأدوار العليا لأصحاب السرايات والسيارات
 المرسيلى » • •
صاغت أطراف أنامله الحريية يدي الشوكية :
 - كيف حالك • • يا سعيد ؟

يقولون .. الضربة فى الرأس توجع . ما بال ثلاث ضربات؟
منذ أن عرفت القرية مخلوف . ثم حلت بها . أصبحت الكأبة .
الهموم تملأها . نظل سنوات نضع طوبة على طوبة . تعيد بناء
دورنا . إشارة منكما . همسة فى آذان أهل العزبة . تطفح
صدورهم بالحقد . تتحرك طبيعتهم الثعبانية . يقذفون كرات
القماش المشتعلة فوق سطوح دورنا . تصبح أطلالا .. فى
دقائق .

أول أمس قابلنى رمضان . كان الهم يفرق تجاعيد وجهه :
— أصبحت رأسى تملأها العيون المتلصصة الزرقاء . همسات
نارية تنطلق من أفواه أهل القرية .. ليتنى سمعت مشورة زوجتى .
حذرتنى مرارا . لكننى تصرفت دون أن أفكر . ظننت أن سامى
سيحل جميع مشاكلى .

— ألم يدفع لك سامى ثمن نصف دارك ؟
خاض كلب عبد الحسيب فى الوحل .. شعور لزج يحتوينى .
فى الصباح عندما كنت أغمس اللقمة فى طبق العسل الأسود .
حطت ذبابة عليها .. طوحت يدي فى عصبية . طارت . عادت .
مرة أخرى .. ! :

— خد .. خد يا سعيد .
قلبت علبة السجائر فى يدي .. عليها حروف بلغة أجنبية .
لا أعرفها . لو كانت هديتك شيكارة أسمنت .. أسياخ حديد ؟
لأقمت جدارا فى دارى . لكن علبة سجائر .. ؟ الكل يتحدث
يعرف مضار التدخين .. !

هتف زاهر :

— هذه عينة .. مجاناً .

بلا ثمن ؟ أم طعم ؟ عندما يسرى مقولها فى تلافيف
الرأس . يعرف الطريق الى دكاكين سامى . يشتري منها بأعلى
الأثمان .. !

زادت ابتسامة سامى اتساعا :

- سجانر من نوع فاخر .. يا سعيد .. هدية منى اليك .
يوم الجمعة الماضى . كنت أجلس أمام تليفزيون قبائى القرية .
رايت فيلما أجنيا ملونا . كان البطل . أقصد الهيكل العظمى .
يخفى وراء ظهره سيف الموت .. اليد الأخرى تحمل سلة بها تفاح .
يقدمها لزائره .

سحبت زوجتى الجاموسة . تالقي كردانها الذهبى على صدرها .
عرضت على بيعه . لماذا رفضت ؟ لم لا أبيعته واشترى ثلاثة آلاف
طوبة .. و .. لكنه كان شبكة زوجتى .. كيف أفرط فيه ..
اليوم ؟ منذ عشرين عاما احترقت دارى .. خلعت زوجتى :

- بع هذا و ..

- لا .. سأبيع البقرة والحمار .. لن أبيع الكردان .

5

مطلبا العيشين .. جاء :

- لماذا لا تقدم الى الأسمنت والحديد .. يا سامى بك ؟

هتف زاهر :

- يا عبد الحسين .. سامى بك لم يرفض طلبك ..

ولكن ..

- لن آخذ شيئا صدقة .. سوف أدفع ثمن الأسمنت و ..

لماذا أخفى سامى عينيه وراء نظارة لامعة ؟ ؟ يدارى فيها
دهاءه • جشعه ؟ على شفثيه ابتسامة ليמוنية •
عقب مجيء مخلوف الى قريتنا • تشاجر معه فقيه المسجد :
- كنت تائها • فأويناك •

مازال فريد فوق السطح :

- لماذا يقدم سامى الينا الزيت والتفاح و • كهديا ؟
- يكفر عما بدر منه نحو قريتنا •

هتف سامى :

- كان بودى أن أعطيك الأسمنت اللازم لاعادة بناء دارك •
يا عبد الحسيب • لكن شيخ الخفراء سوف يحتاج الى مئات الاطنان
من الأسمنت والحديد •

أعرف شيخ الخفراء • كما أعرف محتويات حافظة نقودى •
يريد أن يصبح من كبار تجار القرية ؟ :

- سيشتري أهل القرية الأسمنت والحديد • من شيخ
الخفراء ؟

- نعم • ثم أننى عرضت عليه فكرة اقامة دوار • بناء شامخ
سيكون مجدا له •

دوار ؟ أنت تخطط • شيخ الخفراء ينفذ • ؟ لقد ضرب
كل من أبدى رأيا مخالفا لرأيه • دخلوا الجحور • أعلن • لا قهر
بعده هذه الضربة • كل كذا سنة يكررها • كاهل العزبة تماما •

قبل أن نلتقط أنفاسنا • ينقضون علينا • يحرقون دورنا •
لماذا يبنى شيخ الخفراء دوارا كبيرا • الآن • ؟ ليلقى فيه ضحاياه
الأبرياء ؟ تفرق بين جدران الصخرية العالية • صرخاتهم ؟ يبتلع

الأحياء .. والطوب .. الأسمنت ؟ كيف .. من أين نبنى دورنا ؟
كان التراب في الماضي بلا ثمن .. نجده في كل مكان . أصبح
الآن بسعر الذهب .. لا نعثر عليه .. الا بشق الأنفس !

منذ عشر سنوات صارت داري خرابا صقفا .. قدمت الى
زوجتي كردائها الذهبي .. رفضت بيعه .. بعث قراطين من الستة
قرايط التي أمتلكها .. وضعت يدها على خدها :

.. اذا لم يتوقف تدفق طوفان الحقد في صدور أهل العزبة
.. فسوف نبيع أرضنا ..
.. مخلوف وسامي يوغان صبدور أهل العزبة بالكراهية
نحونا ..

غادر رمضان داوه :

.. اذا لم أبع لسامي حجرتين في داري .. فمن أين أدبر
نقودا لأعيد بناء داري ؟ ..

.. هناك ألف وسيلة و .. وسيلة .. لا داعي لأن يشتري
رجل غريب نصف دارك .. انه غل وشك أن يشتري نصف القرية ..
اقترب رمضان من المسجد .. عندما طردت القرية مخلوف
وأقاربه .. أسرعوا الى عائلاتهم في العزبة .. « وزوهم » ضدنا ..
تسللوا تحت عباءة الظلام .. أحرقوا دورنا .. مخلوف يكيده
لقريتنا .. لكل قرية عرفت ألعيبه .. طردته .. عكاشة يتحسر على
أيام مخلوف في قريتنا :

.. كنا في أمان ورفاهية ..

هتف عبد الحسيب :

.. يا سامي بك .. سادفغ ثمن الأسمنت ..

— أعلم هذا .. لكن هل أقدم اليكم الأسمنت .. ولا أقدمه
الى شيخ الخفراء وقباني القرية و .. و .. ؟

كيف .. هذا ؟ لقد أصبحت الأدوار السفلية للمرايات التي
تلقى بظلالها . تمنع الشمس عن دورنا .. مخازن للقمح والأرز
و .. و .. الصوامع الطينية فى بيوتنا خالية .. هجرها السوس !

حظ بصرى على نافذة فريد أبو العينين :

— سامى ومخلوف يحرضان أقاربهما فى العزبة ضدنا .
لا يدعونا نلتقط أنفاسنا .

— صرنا ككلاب السيجة فى يد سامى ومخلوف .

— لا نعرف اذا كانت السجائر التي يقدمها الينا سامى ..
هدايا أو تعريضا ؟ .. ؟

٦

هبت عاصفة فى الخرابة . فى صدرى كثير من الزوابع .
تذكرت حوارا دار بينى وبين خليل :

— صداقة سامى أصبحت مفروضة علينا .

— محال أن نقف فى وجهه .

— كيف ؟

— هل تستطيع أن تشهر العصا فى وجه الريح ؟

— لم يعد أمامنا .. سوى الصبر .

— لم نعد من لحم ودم .. صرنا من طين الصبر .

— اشعل سامى ولاعته الذهبية :

— ماذا قلت يا عبد الحسيب ؟

مخلوف وسامي لصبان • رغم أن مزاجهما مختلف • طبيعتهما
متناقضة • غرائز كل منهما تمضى فى اتجاه • الا أنهما يتفقان على
هدف واحد • هو أن تظل طاقتنا موجهة الى بناء دورنا • تظل
أيدينا ممدودة اليهما • غريق يطلب النجاة • • • • !

رفع سامى نظارته عن عينه • لماذا غرق فى تأملاته ؟ عنكبوت
نسج من حوله الخيوط ينتظر • • ذبابة • • • • !

الأسبوع الماضى صفع سامى فريد على وجهه :

— لا مفر من قبول صداقتك • • هداياك •

ألقى الجميع اللوم على سامى • اعتذر لفريد • قدم اليه علبة
سجائر • أخذها فريد • لم يقدم لأحد سيجارة • نسي الصفة •
طبعت على كتفه :

— سامى يداوى الجروح التى خلفتها لدغته • بلحسة مرهم •

— • • • • •

— كيف يصفحك • • يقبل رأسك ؟

— أكره سامى • • القرية كلها لا تطيقه • تلقاه بابتسامة
مسلوخة • لا تقدر أن ترفض هداياه •

هشم السكون صغير قطار • يوما ما • كنت أسير مع زاهر :

— أيهما أفضل • • ؟ أيام كان مخلوف وأقاربه فى قريتنا • •
أم الآن • • سامى بيننا • • ؟

نظرت نحو القطار • اشرت الى العربى الأخيرة :

— نحن نركب « السبنسة » •

أشعل سامى سيجارة فاخرة • منذ أسبوعين أعلن عن تقديم
أطنان من القمح الى القرية • بعد ساعتين أقبلت مركب كبيرة •

محملة بغرات قمح :

- هل ستوزع الزكائب على أهل القرية ؟
- ستفرغ المركب حولتها في الشونة أولا ؟ ثم توزع على أهل القرية .

عدنا الى دورنا على أجنحة الأمل .. أعدنا الصوامع الطينية .
ستملا بالقمح لأول مرة منذ سنوات ؟ .. كنا نقول لأنفسنا لن
يظفر كل واحد منا بأقل من أربع زكائب ! .. !

بعد أيام رأيت في منتصف الليل عربة تقف أمام سراى شيخ
الخفراء محملة بغرات القمح . ومثلها تقف أمام قصر قباني
القرية وعربة ثالثة تقف أمام سراى رئيس الجمعية الزراعية ! .. !

جذب سامي نفسه من سيجارته . عندما ذهبنا الى الشونة .
كان كل منا يحمل تحت ابطة الغرات الفارغة . طلب منا أمين
الشونة أن نقف طابورا . صنع أهل القرية سورا ثعبانيا حول
الشونة :

- كل واحد معه بطاقة تموين .. سيأخذ نصف كيلة قمح .
- زكائب القمح التي كانت تسد عين الشمس .. كل واحد
يأخذ نصف كيلة ؟ .. ؟

غاب ومضبان داخل المسجد :

- لو حققنا ؟ .. ؟

- من يحقق مع من ؟

- يبدو أنهم تقاسموا هدية سامي الى القرية و .. اقتسموا
القمح .

أقبل عكاشة . ماذا يريد ؟ الشهر الماضي قابلني :

- لقد مات ابن قباني القرية .

- قتلته التخمة .

قباني القرية يبشر بالنزاهة . القناعة . لا يتوقف عن التهام
المزيد من الثروات .

هتف سامي :

- اسمع يا عبد الحسيب .. أنا عندي فكرة . .

- ما هي ؟

- سأقدم اليك الأسمنت اللازم لاعادة بناء دارك .. لكن على

شرط .

مط عكاشة شفتيه . هز رأسه :

- كل أهل القرية يعرفون .. هذا الشرط .

- كيف عرفه أهل القرية قبل أن .. أعلنه ؟

- ستقول .. اشترؤا الأسمنت من شيخ الخفراء .. أصبح

حاميا حراميا .. ؟

- هل التجارة حرام ؟

- تجارة .. ؟ أقطع ذراعي إذا لم ..

وكزه زاهر :

- اقطعه من الآن .

الترب عبد الحسيب من سامي :

- ما هو شرطك ؟

هتف زاهر :

- شرط سامي بك .. أن تبيع له نصف دارك ليقيم دكانين

لبيع التفاح والطور .

٧

لمعت على شفتي سامى ابتسامة .. قط يرقب فارا .. الاحساس
الوحيد الذى يجمعنا بسامى .. هو الذى يجبر المريض على تناول
الدواء ..

كان مخلوف يكذب .. يخدع أهل القرية .. وهو يدعو الى
الصدق .. يعيش فى الوحل .. يبشر بالطهر .. كان يريد أن يصبح
سيد القرية ..

وضع زاهر يده على كتف عبد الحسيب :

— لماذا لم ترد على سامى بك .. ؟ انه يريد أن يتحدث مع
سعيد ..

— ماذا أقول ؟

— أترفض حسنة يقدمها سامى بك .. اليك ؟

— اننى لم أسأله احسانا ..

— هذه اجابة تتسم بالجفاء ..

اقترب عكاشة منى :

— اريد قلة ماء ..

تسأل زاهر :

— ألم ترو من بيرة ونبيذ مخلوف ؟

— ما شأنك يا ظل سامى .. بك ؟ كنتم تقولون ان مخلوف

ملا القرية دكاكين .. لقد تركها لسامى الذى حول الدكاكين الى
وكالات ..

— الايام بيننا .. وعلى العموم بعد قليل سيوف نرى ..

الرخاء ..

لماذا يتوعد زاهر عكاشة ؟ ألا ينسى حكاية القطة التي خطفت
الطعام من تحت أنف الكلب ؟

منذ سنوات وسامي يلحف خيرات القرية . لم تر بشارة
الرخاء . الرفاهية التي تحدث عنهما . متى تثمر شجرة الرخاء ..
هذه !

نظرت نحو ذكر توت رمضان .

سحق سامي سيجارته تحت حذائه اللامع :

.. ماذا قلت يا عبد الحسيب ؟

.....

لماذا سكنت عبد الحسيب ؟ لماذا ينظر نحو دار رمضان ؟ :

— عليه بضباغ الليثون الذي أشار على يبيع نصف داري
لسامي وأقاربه . عندما كانت داري خرابة .. كنت مرتاح البال .
أما الآن جلبت لنفسي وجع الدماغ .

التقت عينا عبد الحسيب بعيني زاهر :

— توكل على الله يا عبد الحسيب .. واعلن موافقتك . بع
نصف دارك .. بداية مشروع جديد لك .
— وإضافة جديدة لمتابعي .

— الكثير من أهل القرية أعاد سامي بك بناء دورهم . باعوا
له دكاكين وحجرات في بيوتهم .

« كل من باع لسامي نصف داره . يسب . يلعن اليوم الذي
وافق فيه على بيع حجرة أو دكان في داره لرجل غريب » .
لماذا لا أقول هذا لزاهر ؟ ؟ . يسمعي سامي ؟ يعرفه ! ! !

— كيف يشاركنى فى دارى رجل امتصت عيناه من سماء
قريتنا زرقتها ؟ سلب شعره من حقول قمحنا وقت حصاده لونه
الأصفر ٠٠ ؟

— سامى بك • ليس رجلا غريبا يا عبد الحسيب ! •
أصبح منا ٠٠

كانت جدتى تقول :

— سامى • مخلوف يكيدان لقريتنا منذ آلاف السنين • لم
يقلبانا بالذراع فى وضع النهار ٠٠ لجأ الى معدتنا ٠٠ جيوبنا •
بعد ان انزاح مخلوف عن قريتنا ٠٠ جاء سامى :

— صرنا كالفيران التى يجرى عليها الأطباء نجاربهم !
من الذى ألقى بهذا السؤال ؟ فريد أبو العينين ؟ فقيه القرية ؟
خليل ؟ أنا ٠٠٠
أسند سامى ظهره الى مقعدة سيارته • همس زاهر فى أذن
عبد الحسيب :

— اسمع كلامى • لا تدع الفرصة تغلت من يدك •

أطلت فى ذهنى صورة امام المسجد :

— وقال الشيطان لما قضى الأمر ان الله وعدكم وعد الحق
ووعدتكم فأخلفتكم •

— كل من سمعوا نصيحتك يلعنونك • ويلعنون مشورتك
السوداء ٠٠٠ يا زاهر •

— أنا ٠٠ ؟ لماذا ؟ حياة أهل القرية « زايطة » و ٠٠

- اتقصده حياة شيخ الخفراء وقباني القرية ورئيس الجمعية الزراعية و ٠٠ و ٠٠ ؟ أم الذين باعوا لسامي وأقاربه أنصاف دورهم ؟

امتدت يد سامي نحو مقبض سيارته :

- هل معك خمسمائة جنيه ٠٠ يا عبد الحسيب ؟
- ليس معي هذا المبلغ .
- ماذا تملك ؟
- ثلاثمائة جنيه .
- لا تكفي ٠٠ ألا تملك مبلغا آخر ؟
- أملك اللحظة ٠٠ الحلم .
- خلاص ٠٠ اما أن تبيع لي نصف دارك ٠٠ والا لا داعي للكلام .

من أين يدبر عبد الحسيب خمسمائة جنيه ؟ يضع سامي العقدة في المنشمار لكي ٠٠ ظننت أن نظرات عبد الحسيب المتوسلة سوف تلين قلبه الصخري . لماذا لا يعمر الخرابة الواسعة بمئات العمارات وآلاف الدكاكين ؟ بدلا من أن يزاحم أهل القرية في مساكنهم ٠٠ ؟ لقد وضع يده على نصف دور القرية ٠٠٠ ٢

جلس سامي خلف عجلة القيادة . لماذا لم يتحدث معي ؟ نسي أنه جاء من أجل موعدى ٠٠ ؟

التفت سامي نحوى :

- يا سعيد ٠٠ على الرغم من أنك اتهمتنى زورا وبهتانا في موضوع اختفاء التمثال الكبير ٠٠ الا أننى سوف أقدم اليك الأسمنت والحديد ٠٠ هل معك ألف جنيه ؟

– ألف جنيه ؟ لو فتشت جيوب ودور أهل القرية جميعا ..
لن تجد معهم هذا المبلغ .. اللهم الا مع شيخ الحفراء وقبائى القرية
و .. و .. وزاهر .

انسأب آذان المغرب عبر سماء القرية • اذار سامى محرك
سيارته :

– طيب ؟ ما رأيك فى أن تبيع لى نصف دارك ؟
• سرت نحو المسجد • تركت على شفتى كلمات .. لم أقلها •

فهرس

صفحة	
٥	امساء
٧	شرح فى شرققة الصممت
١٨	الشعبان
٢٩	أغنية قبل الموت
٤٥	الطاعون
٥٥	الجنايية
٦٦	الرقص خارج الدائرة
٧٧	ميلاد رجل حى
٨٦	الطفلة والقط
٩٣	الصدى يفوص فى الوحل
١٠٩	الذئب
١١٩	المسختقع
١٧٦	رحيل السواقى بحثا عن النهر
١٨٤	الهوان
١٩٢	مفارة على بابا

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٥/٣٤٧٦

ISBN ٩٧٧ - ٠١ - ٦٠٩ - ٧

هذا الكتاب :

مجموعة من القصص القصيرة ، تدور حول الزاد من
المقاومة السلبية والإيجابية في المجتمع ، كما تحسم مختلف أنواع
الشروط متصلة في الضياء أو اللثب أو الطاعون أو الإنسان
الظالم المعتدي على حقوق الآخرين .

ولتحمل هذه المجموعة والتعريف المصري بعمقه وتكامله

والشعر .

Bibliotheca Alexandrina



0627249

